من كنوز القرآن

هذا القرآن

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي




هذا القرآن





الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

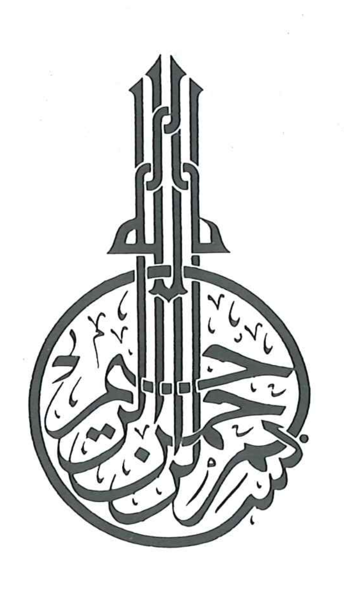
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

من كنوز القرآن



الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي




بسم الله الرحمن الرحيم

هذا القرآن

١ ـ قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

٢ ـ وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤].

٣ ـ وقال رسـول الله ﷺ: «**أَلا إِنَّ رَحى الإسـلام دائِرةٌ، فَدورُوا مع الكتابِ حيثُ يَدورُ، أَلا وإِنَّ السُّلطانَ والقرآنَ سَيَفْترِقان، فلا تُفارِقوا الكتابَ**».

٤ ـ وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ هذه القُلوبَ أَوعيةٌ، فَأَشْـغِلوها بالقرآن، ولا تُشْغِلُوها بغيره».

٥ ـ وقال أَبو موسى الأَشْعريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبِعوا القرآنَ، ولا يَتْبَعَنَّكم القرآنُ، فإنه مَنْ يَتَّبِع القرآنَ يَهبط بـه على رياضِ الجنة، ومَنْ يَتْبَعه القرآنُ يَدْفَعه في قَفاه، حتى يَقذفَه في نارِ جهنم».

٦ ـ وقالَ مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «اسْتَفْرَغَ القرآنُ عِلْمِي كُلَّهُ».

٧ ـ وقالَ ميمونُ بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو صَلَحَ أَهْلُ القرآنِ صَلَحَ الناسُ».

٨ ـ وقالَ سـيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحياةُ في ظلالِ القرآنِ نِعْمَةٌ لا يَعْرِفُها إلَّا مَنْ ذاقَها، نعمةٌ ترفعُ العُمُرَ وتُبارِكُه وتُزَكّيه».



مقدمة



إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونَستعينُه، وَنتوبُ إليه ونَستغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أَعمالِنا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشـهدُ أن لا إلٰه إلا الله، وحده لا شَريكَ له، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، وعلى آلِه وصحبِه.

أمّا بَعد:

فإنّنا نعلَم أنَّ الإسلامَ يَمُرُّ في هذا العصرِ بغُربةٍ شَديدةٍ، تُشابِهُ الغربةَ التي عاشَها عند بدايَتِه، زمنَ رسولِ الله ﷺ.. ونوقنُ أَنَّ هذه الغربةَ التي يَمُرُّ بها تَمهيدٌ لتمكينِه الواقعيِّ الكبيرِ في الحياةِ البشرية.. حيثُ سينتصرُ الإسلامُ انتِصارًا كبيرًا مُدْهِشًا يُحَيِّرُ الدّارسينَ والمحلِّلين، كما حَصَلَ في انتصارِهِ المذهِلِ الذي أَعْقَبَ غُرْبَتَه الأولى.

نوقِنُ بِهذا؛ لأَنَّ هذا ما أَخبَرَنا عنه رسـولُ اللهِ ﷺ، حيثُ قالَ: «**بَدَأَ الإسْلامُ غَرِيبًا، وسيَعودُ غَريبًا كَمَا بَدَأَ، فطُوبى للغُرَباء**».

لقد شـهدَ العالَمُ في هذا العصرِ إقصاءَ الإسلامِ عن الوُجودِ الفعليِّ المُؤَثِّرِ في حياةِ المسلمين! في الوقتِ الذي شهِدَ فيه تَحَكُّمَ «الجاهليةِ» في حَياةِ البشر، وقيادَتِها للبشريةِ نحوَ الهاوية..

وشهدَ المسلمونَ في هذا العصرِ هجمةً شرسةً من قِبَلِ أعدائِهِم في الدَّاخِلِ والخارجِ، بهدفِ إفْسادِهم، وإبعادِهم عن قرآنِهم، ونَهْبِ أموالِهم.. وَشهِدَ المسلمونَ بالمقابلِ صحوةً إسلاميةً مُتنامية، وعَمَلًا إسْلاميًا مُباركًا، وحركاتٍ إسْلاميةً مختلفة، منتشرةً في كلِّ بقاعِ العالم، وعلماءَ ودُعاةً ومُجاهدين، يقِفون أمامَ الأعداء.. وإنَّ العودَةَ إلى حقائقِ القرآنِ تزدادُ وَتتنامى وتتَصاعد، وإنَّ المسلمينَ يَعيشونَ صَحْوةً إسْلاميةً مباركةً، تُبشِّرُ بمستقبلٍ مشرقٍ للإسلامِ والمسلمين بإذن الله.. وهاهي الإشاراتُ الإيجابيةُ الآتِيَةُ إلينا من عِدَّةِ دولٍ عربيةٍ وإسلامية، تسجِّلُ لنا تَقَدُّمًا ونَجاحًا للحركاتِ والأَحزابِ والتنظيماتِ الإسلامية.

ويقفُ الأعداءُ في الداخلِ والخارجِ أَمامَ الإسلام بكلِّ ما أُوتوا من قُوَّةٍ ومَكْرٍ، ودَهاءٍ وخُبْثٍ، بهدفِ صرفِ الأُمةِ عن إسْلامِها، وإبعادِها عن قرآنِها، والقضاءِ على الإسلام، وإطفاءِ نورِ القرآن، لكنَّهم فاشلونَ بإذْنِ الله، وصَدَقَ اللهُ العظيمُ القائل: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

ولن يتوقَّفَ الأعداءُ عن حربهم لهذا الدينِ، ولا بُدَّ أَنْ يَعرفَ المسلِمون الواعونَ هذه الحقيقة، وأَنْ يستَعِدُّوا لها، وأنْ يُبرمجوا حياتَهم على أَساسِها، وهم الغالبونَ بإذْنِ الله.

ونعتقدُ جازمينَ: أَنَّ القرآنَ هو كتابُ المعركةِ والمواجهةِ والتَّحَدّي، هو الذي يَقودُ من خلالِ جنودِه وعلمائِه ودُعاتِه، المسلمينَ في معركتهم مع الكافرين، ويضمنُ لهم الفوزَ والانتصارَ فيها، إنْ أَخَذوا بحقائِقِه والْتَزَموا بهديه.

كما أَنَّنا نعتقدُ جازمينَ: أنه يجبُ أنْ يكونَ القرآنُ هو أَساسَ العودة، ومنطلقَ البعثِ والحركة، ومَبْدَأَ الإصْلاح والتغييرِ والبِناء.. منه يَبْدَأُ الدعاةُ والمصلحونَ والمربُّون، وإليه ينتهون، وبه يتحرَّكونَ ويدعونَ ويجاهدون، وفي ظِلالهِ يَعيشون، وبذلك يكونونَ سُعَداءَ فائزين.

وأَحْبَبْنا أَنْ نُساهم بجهدٍ متواضِع، على طريقِ العودةِ إلى الإسلام، والإقبالِ على القُرآن، نقدّمُ هذا الجهدَ للدُّعاةِ والمُرَبّين والمجاهدينَ من أَبنائِنا الصَّالحين، وبَنَاتِنا الصَّالحات، ليتَعَرَّفوا منها على «هذا القرآن» الأساسِ، والمنطلقِ، والمنهاجِ، والخطة، والطريقِ، والغاية.

كتابُ «**هذا القرآن**» يُعَرِّفُ المسلمين على هذا القرآن، ويَربطُ قلوبَهم عليه، ويُوثِّقُ صِلَتَهم به، ويُرَشِّدُ حركتَهم معه، ويُطلقُ جهادَهم منه..

وعَرَضْنا في كتابِنا الموضوعاتِ القرآنيةَ التَّالية:

١ ـ **مَعاني أسماءِ القرآنِ الأربعة**: وهي: القرآنُ، والكتابُ، والفرقانُ، والذِّكْرُ.

٢ ـ **معاني أَهَمِّ صِفاتِ القرآن**: وهي: الروحُ، والنورُ، والهُدى، والرحمةُ، والبَلاغُ.

٣ ـ **كيفَ ننظرُ إلى القرآن**: حيثُ عارَضْنا نظراتٍ خاطئةً للقرآن، وعَرَضْنا النظرةَ الصَّحيحةَ للقرآن، لنُحسنَ فَهمَه وتدبُّرَه، والتَّربيةَ عليه.

٤ ـ **حِفْظُ اللهِ للقرآنِ**: تَكَلَّمْنا فيه عن تَكَفُّلِ اللهِ بحفْظِ القرآن، بينما أَوْكَلَ إلى السَّابقينَ حِفْظَ الكُتُبِ السَّابقة، لكنَّهم حَرَّفوها، فَنَسَخَها الله، وأَشَرْنا فيه إلى مَظْهَرَيْنِ من مظاهِر هذا الحِفظِ الربَّاني: حِفْظِ كَلماتِه وحُروفِه، وحِفْظِ مَعانيهِ وحقائقِه.

٥ - **لَطائفُ مِـن أَوَّلِ وآخِرِ ما نَزَلَ مـن القرآن:** ذَكَرْنا بعـضَ اللطائفِ والاسـتنتاجات من تَرتيبِ وموضوعـاتِ أَوَّلِ ما نَزَل، من سـور: العلق، والقلم، والمزمل، والمدثر.. ولطائف من آخِرِ الآياتِ نزولًا، وهـي قولُـه ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٦ - **القرآنُ قولٌ ثَقيل:** تَحَدَّثْنا فيه عن تيسـيرِ القرآنِ للذكْر، وَوَفَّقْنا بينَ تَيسـيرِه للذكرِ وبينَ كونِه ثقيـلًا، وعَرَضْنا مظاهِـرَ الثِّقَلِ في هذا القرآن.

٧ - **مهمةُ القرآنِ في حياةِ الأمةِ:** دَعَوْنا فيه إلى وُجوبِ أَنْ تكونَ نظرَتُنا إلى القرآنِ شـامِلَةً، لنعرفَ مهمَّتَهُ الإيجابيـةَ الحَيَّةَ في حَياةِ الأمة، وسَجَّلْنا فيه أَرْبَعَةَ أَهْدافٍ أساسية للقرآن.

٨ - **نعمةُ الحياةِ في ظلالِ القرآن:** اسـتَفَدْنا فيه من كَلامِ سيد قطب عن نعمةِ الحياةِ في ظلالِ القـرآن، ودَعَوْنا إلى مصاحبةِ القُرآن، وأَكَّدْنا على تَتابُعِ وتَنَوُّعِ موضوعاتِ سُـوَرِ القرآن، وعَرَضْنا سورةَ «الفَجْرِ» مِثالًا ونموذجًا لهذا.

٩ - **من فضائِلِ القرآن:** عَرَضْنا فيه أَحاديثَ لرسـولِ اللهِ ﷺ حول القرآنِ وفضائِله وفَضْلِ أَهْلِهِ، كما سَـجَّلْنا أَقوالًا لعلماءَ سابقين في فضائِلِ القرآن.

١٠ - **من صفاتِ حاملِ القرآن:** ذَكَرْنا فيه بعـضَ الصِّفاتِ التي ذَكَرَها القرآنُ لحَمَلَةِ القـرآن، وبعضَ أَخلاقِ أَهْلِ القرآن، وأَسـبابَ تَفَرُّدِ الصَّحابَةِ باعتبارِهم جيلًا قرآنيًا فريدًا.

١١ ـ **القرآنُ والعَقْلُ**: تحدَّثْنـا فيه عن محدوديَّةِ مَجالِ العقل، والمجال المحظورِ على العقلِ الخوضُ فيه بسببِ محدودِيَّتِه، وسَعَةِ المَجالِ الآخَرِ الذي يمكنُه الجَولانُ فيهِ، وبَيَّنَّا تكريـمَ القرآنِ للعَقْل، وأنه تابعٌ للنَّصِّ القرآنيِّ وليس حاكِمًا عليه.

١٢ ـ **القرآنُ مُهَيْمِنٌ على كُلِّ ما سواه**: ذَكَرْنا فيه تَصديقَ القرآنِ للكتبِ السَّـماويةِ السَّـابقةِ التي أَنزلَها اللهُ على الأنبياءِ السَّابقين، وتكذيبَه للكتُبِ التي حَرَّفَهـا وغَيَّرَها أَصحابُها، وَوَضَّحْنـا فيه: وجوبَ أَن يكونَ القرآنُ فوقَ كُلِّ الدَّسَـاتيرِ، والأنظمـةِ، والمناهج، والبرامج، التي توجَدُ في بلادِ المسلمين.

١٣ ـ **القرآنُ والسُّـلطانُ**: تَحَدَّثنا فيه عن اتِّباعِ بعضِ السَّابقينَ كاليهود للهَوى، ومزاجيَّتِهِم في التعامُلِ مع دينهِم، وَبيَّنَّا فيه وُجوبَ خضوعِ كُلِّ فَـرْدٍ في الدولةِ الإسـلامية لحكمِ الله. وأَنَّ رَفْـضَ حُكْمِه كفرٌ ونفاقٌ، وخروجٌ من دينِ الله، ومن ذلك: «الكُفْرُ التَّشـريعيُّ» الذي يَصدُرُ عن مسـؤولينَ في العالم الإسلامي، يُشَـرِّعونَ فيه أَحكامًا تتعارضُ مع شَـرْعِ الله، ودَعونا إلى وُجوبِ الـدَّوران مع القرآن، عندما ينفصلُ السُّلطانُ عن القرآن.

١٤ ـ **القرآنُ عاصِمٌ عندَ الفِتَن**: ذَكَرْنا فيه كَثْرَةَ الفِتَنِ وتَتَابُعَها، كما أَخبَرَ رسـولُ اللهِ ﷺ، وسَـجَّلْنا أَهَمَّ أسـبابِ كَثْرَتِها، ولماذا القرآنُ هو العاصمُ عند الفتن، وَخَتَمْنا كلامَنا بالدَّعوةِ إلى الاستِمْساكِ بالقرآن، ثم تَمسيكِ الآخَرين به، وإلى الجهادِ الكبيرِ الشَّاملِ بالقرآن.

كتابُنا «**هذا القـرآن**» بين أَيديكم يا أَهْلَ القرآن، مـن أَبنائِنا وَبناتنا،

ونَرجو اللهَ أَنْ يَنْفَعَ به، وأَنْ يَتَقَبَّلَه بقَبولٍ حَسَنٍ.

ونختمُ كلامَنا بدُعاءِ رسولِ الله ﷺ: «**اللهمَّ اجعَل القُرآنَ رَبيعَ قُلوبِنا، ونورَ صُدورِنا، وذهابَ هُمُومنا، وجَلاءَ أَحْزانِنا، وارْزُقْنا تِلاوَتَهُ آناءَ الليل وآناءَ النَّهار، وعَلِّمنا منه ما جَهِلْنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، واجْعَلْهُ حُجَّةً لنا يومَ القيامة**».

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي
١٤٣٣/٤/١٣ هـ
٢٠١٢/٣/٧م

أولًا

معاني أسماء القرآن

• حديث القرآن عن القرآن:

القرآنُ الكريمُ كَلامُ اللهِ، باللفـظ والمعنى، واللهُ أَدرى بطبيعةِ كلامِهِ، وبصفاتِهِ ومزاياه، ولذلك: علينا أَنْ نتعرَّفَ على القرآنِ من القرآنِ نفسِه، وأَنْ نقفَ مع الآياتِ التي تحدثتْ عن القرآن، وعرضَتْ أَسماءَه وصِفاتِه.

نقرأُ في الآياتِ حديثَ القرآنِ عن القرآن، وهو حديثٌ جامعٌ صادِق، ونقرأ في الآياتِ وَصْفَ القرآنِ للقرآن، وهو وَصفٌ دقيقٌ أصيل، ونقرأُ في الآياتِ بيانَ القرآنِ لطبيعةِ ومهمةِ القرآن، وهي طبيعةٌ عظيمةٌ، ومهمَّةٌ حيَّةٌ رائدة.

سنصحبُ القرآنَ في جولةٍ لنقفَ مع حديثِهِ عن نفسِه، ونتعرَّفَ على أَسـمائِه وصفاتِه، ونعرف معنى هذه الأسماءِ والصّفات، ونلحظ أبعادَها الواقعيةَ في حياتِنا العملية.

• التفريقُ بين أَسماءِ القرآنِ وصفاتِه:

بعضُ السَّـابقين لم يُفرِّقْ بين أَسماءِ القرآنِ وصفاتِه، فاعتبرَ صفاتِ القرآن الواردةَ في الآياتِ أَسـماءً له، وعَدَّها مع أسمائِه، وبذلك زادَتْ أسماءُ القرآنِ عنده على خمسين اسمًا.

والأصلُ: أَنْ نفرقَ بينَ أسماءِ القرآنِ وصفاتِه.

أَسماءُ القرآنِ أَربعة؛ هي: القرآنُ، الكتابُ، الذِّكرُ، الفُرقان.

وصِفاتُ القرآنِ التي وَصَفَه اللهُ تعالى بها كثيرة.

• معنى أسماء القرآن الأربعة:

١ ـ معنى القرآن:

هذا هو الاسمُ الغالبُ المشهورُ لكتابِ الله، وقد خَصَّه اللهُ به، ولم يُطلقْه على أيٍّ من كتبِه السَّابقة؛ فقد أَخبَرنا عن ثلاثةٍ من كتبه السَّابقة، وهي: التّوراةُ المنزَّلةُ على موسى، والزَّبورُ المنزَّلُ على داود، والإنجيلُ المنزَّلُ على عيسى ـ عليهم الصلاة والسلام.

ووردَتْ كلمةُ «قُرآن» في الآياتِ مرّاتٍ كَثيرة، ليس هدَفُنا ذِكْرَها واستِقْصاءَها، ولكن نُشيرُ إلى بعضِها:

منها: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

ومنها: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

ومنها: قولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

أ ـ الراجحُ في اشتقاقِ «القرآن»:

هو مصدر؛ تقول: قَرأْتُ، أَقْرأُ، قَرْءًا، وقِراءَةً، وقُرْآنًا.

وسُمِّيَ «قُرْآنًا»: لقراءَتِه، سواءٌ قرأَه الإنسانُ لنفسِه، أَو قَرأَه على الآخَرين.

ـ من قراءةِ المسلمِ القرآنَ لنفسِه، قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

ـ ومن قراءةِ القرآنِ على الآخرين، قولُه تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ب ـ القراءةُ: جمع الحروفِ بالنُّطق:

المصدَرُ الثلاثيُّ للقرآنِ هو «قَرْءٌ».

ومَعْنى «القَرْء» هو: الجمعُ والضَّمُّ.

وقد وَرَدَ جمعُ «القُرْء» في القرآن؛ وهو «قُروءٌ» في الكلامِ على عِدَّةِ المرأةِ المُطَلَّقَة؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهناكَ خِلافٌ بين الفقهاءِ في المرادِ بالقُروءِ هنا، هل هي الحَيْضاتُ أَو الأَطهارُ؟ أَيْ: هل تَعْتَدُّ المرأةُ ثَلاثَ حَيْضاتٍ بأَنْ تَحيضَ بعد طَلاقِها ثلاثَ حَيْضات، أو تَعْتَدُّ ثلاثة أطهار بعد طلاقها؟.

المهمُّ: أَنَّ الحَيْضاتِ أَو الأطهارَ سُمِّيَتْ «قُروءًا»؛ لأَنَّ المرأةَ تَجمعُها وتَعُدُّها، وتَحرصُ على انتهائِها، وتتمنّى ذلك حتى تنتهيَ عِدَّتُها، فهي تَعُدُّ هذه القروءَ الثَّلاثَة وتَجمعُها، وتضمُّها بعضَها لبَعْض.

واشْتُقَّت القراءَةُ من «القَرْء»: لأَنَّ القارئ عندما يَقْرَأُ أَيَّ كَلامٍ، فإنه يجمعُ حروفَ الكلمةِ في نفسِه، ويضُمُّها بعضَها إِلى بعض، ثم يَقْرؤُها وينطقُ بها، ويتلفَّظُ بها، ويُخرجُها من فمِه مضمومَةً مجموعةً على شكلِ كلمةٍ أَو جُملة.

واشْتُقَّ «القرآنُ» من «القَرْءِ»، لما في قراءَتِه من معنى الجمعِ والضَّمِّ، فالمسلمُ عندما يقرأ الآيةَ من القرآن، فإنما يجمعُ حروفَها وكلماتِها، ويضمُّها بعضَها إلى بعضٍ، ثمَّ ينطقُ بها.

ج - ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

أَوَّلُ ما نَزَلَ من القرآنِ على رسول اللهِ ﷺ، هو أَوَّلُ آياتِ سورةِ العَلَق، التي هبط بها جبريلُ عليه السلام على رسول الله ﷺ، في ليلةِ القَدْرِ، وهو في غارِ حِراء.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

ونلاحِظُ: أَنَّ أَولَ كلمةٍ أُنزلَتْ من كتابِ اللهِ هي: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وهي أَمْرٌ بالقراءة؛ أَيْ: يَأْمُرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنَّ يقرأَ الآيات، بأَن يَجمعَ حُروفَها وكلماتِها، ويَضُمَّها، وَينطقَ بها.

وقد وَرَدَ الأَمْرُ بالقراءَةِ في هذه الآياتِ الخمسِ مرتين: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

والأَمْرُ بالقراءَةِ في المرَّتَيْنِ مَقرونٌ بالرَّبِّ الأَكْرَم، وهذا له دلالَتُه التَّرْبويَّة، في رَبْطِ القراءَةِ والتعلُّمِ بالربوبية.

ولا ننسى: أَنَّ هذا الأَمْرَ بالقراءَة في أَولِ كلمةٍ نازلةٍ من كتابِ الله، مُوَجَّهٌ إِلى رسولِ الله ﷺ، النبيِّ الأُمِّي الذي لا يَقرأُ ولا يَكتب.

د ـ تعريف القرآن:

القرآنُ في اللُّغةِ: مصدر، بمعْنى القراءة.

أَمّا في الاصطلاح: فإنَّ أَجمعَ وأَخْصَرَ تعريفٍ له هو: كَلامُ اللهِ، المُنَزَّلُ، على محمَّدٍ ﷺ، المتعبَّد بتلاوتهِ.

و«**كَلامُ**»: جنسٌ وأَصْلٌ في التَّعريف، يَشملُ كُلَّ كلامٍ، سواءٌ كان كَلامَ الله، أَم كَلامَ غيرِه.

وإِضافَةُ الكلامِ إِلى الله: «**كَلامُ اللهِ**» قَيْدٌ أَوّل، خرجَ به كلامُ غيرِ الله من المخلوقين، مثلُ كَلامِ الإِنسِ والجنِّ والملائكة.

وَوَصْفُ «**المنَزَّلُ**» قيدٌ ثانٍ، خَرَجَ به كلامُ اللهِ غيرُ المُنَزَّل، فلم يُنَزِّل اللهُ كُلَّ كلامِه على رُسُلِه، وإِنَّما الكلامُ النَّازلُ على الرُّسُلِ جزءٌ محدودٌ من كلامِ الله، الذي لا نهايةَ ولا حَصْرَ ولا نفادَ له.

وكَلامُ اللهِ لا يَنتهي؛ لأَنه صِفَةٌ من صفاتِه، قائمةٌ بذاتِه سبحانه، لا تَنفكُّ عنه، فليس كلامُه مَخلوقًا، له بدايَةٌ ونهايَة.

وقَدَّمَ القرآنُ هذه الحقيقةَ - عَدَم نَفادِ وانتهاءِ كلامِ الله - بطريقةٍ تَصْويريَّةٍ، تمثيليَّةٍ، تخييليةٍ:

قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وتقييدُ كَلامِ اللهِ المُنَزَّل، بأَنه **مُنَزَّلٌ على محمَّدٍ** ﷺ قَيْدٌ ثالث، خرجَ به كلامُ الله المُنَزَّلُ على الأَنبياءِ والمرسلين السَّابقين، المتمثِّلُ في كُتُبِ اللهِ السَّابقة، كالتَّوراةِ والزَّبورِ والإِنجيل.

ومعنى: «**المُتَعَبَّدُ بتِلاوَتِه**»: أَنَّ تلاوَةَ، وقراءةَ القرآنِ عبادة، في داخِلِ الصَّلاةِ وخارجِها.

فإذا قرأ المسلمُ آياتٍ من القرآن خارجَ الصَّلاة. كتبَ اللهُ له الأَجْرَ وأَثابَه على كُلِّ حرفٍ عَشْرَ حَسَنات، ويُضاعِفُ اللهُ الأَجْرَ والثَّوابَ لمن شاء.

ومن السُّنَّةِ أَنْ يقرأَ المسلمُ آياتٍ من القرآنِ بعدَ قراءةِ الفاتحةِ في الصَّلاة.

فتِلاوَةُ وقراءةُ القرآنِ داخِلَ الصَّلاة وخارِجَها عبادَةٌ لله.

وقولُنا: «المتعبَّدُ بتلاوَتِه» قيدٌ رابعٌ، خرجَ به القراءاتُ الشّاذَّة، التي لم يَصِحّ كونُها قرآنًا.

فالقراءاتُ الصَّحيحةُ التي وَصَلَتْ إلينا عَشْرُ قراءاتٍ، لِعَشَرَةٍ من القُرَّاء، والقُرّاءُ العَشَرَةُ هم: نافِعٌ، وابنُ كَثيرٍ، وابنُ عامرٍ، وأَبو عمرٍو، وعاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيّ، وأَبو جعفر، ويعقوب، وخلف.

كما خَرَجَ بهذا القيدِ ما يُسَمَّى **بالقراءاتِ التفسيريّة**، وهي الرواياتُ الصَّحيحة، المنقولَةُ عن بعضِ الصَّحابة، في إضافةِ كَلماتٍ تفسيريَّة، فَسّروا بها بعضَ الآيات.

مثالُ ذلك: ما رُويَ عن عبدِالله بن مسعودٍ ﷺ في صِيامِ ثلاثةِ أَيّامٍ كفارةً لمن حَنَثَ في يمينه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

فالقراءةُ التفسيريةُ، ما رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ: أَنه كَتَبَ في مُصْحَفِه: فَصيامُ ثلاثةِ أَيام «**متتابعات**».

أَيْ: إنَّ ابنَ مسعودٍ يَرى: أَنَّ صِيامَ الأَيّامِ الثَّلاثَةِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ متتابعًا.

٢ ـ معنى الكتاب:

سَمّى اللهُ كلامَه المُنَزَّلَ على محمدٍ ﷺ «كتابًا».

ووردَ ذلك الاسْمُ في آياتٍ كَثيرة:

منها: قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

ومنها: قولُه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

ومنها قولُه جَلَّ جَلالُه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

والكِتابُ: مصدَرٌ بمعنى الكتابة. تقولُ: كَتَبَ، يَكْتُبُ، كَتْبًا، وكِتابَةً، وكِتابًا.

والمصدَرُ الثلاثيُّ للكلمةِ هو: «الكَتْب».

والكَتْبُ في اللغة: هو الجمعُ والضَّمُّ.

يُقالُ: كَتَبَ الخياطُ الجلْدَ؛ أَي: جَمَعَ وضَمَّ بين قِطَعِه وخاطَها. ويُسَمَّى الكاتِبُ كاتبًا؛ لأنه يَجمعُ حُروفَ الكلمةِ، وكلماتِ الجُملة، ويَضُمُّها على السَّطر.

فالكتابَة إِذًا: هي جمعُ الحروفِ بالقَلَمِ على الورقة.

أ ـ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾:

أَوَّلُ ما نَزَلَ من القرآن هو مطلَعُ سورةِ العَلَقِ، وفيه إِشارَةٌ إِلى القراءة والجمعِ الصَّوتيِّ للقرآن، بجمعِ الحُروفِ في الفمِ، ثم النُّطْقِ بها.

ثم نَزَلَ بعدَ ذلك مطلعُ سورَةِ ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾، وفيه إِشارَةٌ إِلى كتابَةِ القرآن، وهي جمعُ حُروفِ وكلماتِ القرآن، بِكتابتِها على السَّطْر.

قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ١ ـ ٢].

ونُلاحِظُ: أَنَّ هذه الآيَةَ : ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ قد جَمعَتْ ثَلاثَةً من عَناصرِ العمليةِ الكتابيةِ الأربعة، وهي: المكتوبُ، والمكتوبُ به، والمكتوبُ عليه:

١ ـ حَرْفُ ﴿نٓ﴾: يُشيرُ إِلى المكتوب؛ وهو الحروفُ التي تُكْتَبُ.

٢ ـ و﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾: يُشيرُ إِلى المكتوبِ به.

٣ ـ و﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾: يُشيرُ إِلى السَّطْرِ في الورقة، وهو المكتوبُ عليه.

وقد أَقْسَمَ اللهُ بهذه العناصرِ الثلاثة: الحرفِ، والقَلَمِ، والسَّطْرِ.. أَو المكتوب، والمكتوب به، والمكتوب عليه، لتقريرِ حقيقةِ النُّبوة، وإِثباتِ: أَنَّ محمدًا هو رسولُ الله ﷺ، ونفيِ الجنونِ عنه.

ونُلاحِظُ: أَنَّ الآيَةَ لم تَذْكُر العنصرَ الرابعَ من عناصِرِ العمليةِ الكتابية، وهو «الكاتِبُ»؛ لأَنَّ القرآنَ كَلامُ الله، وليسَ كلامَ أَحَدٍ من البَشَر، أَيْ: ليس من تأليفِ أَو كتابَةِ أَو صِياغَةِ مَخْلوقٍ.

وكتابةُ القرآنِ التي قامَ بها الصَّحابَةُ عمليةٌ متأَخِّرةٌ، فقد كَتَبوا

علـى أَدواتِ الكتابـةِ كلامَ اللهِ، الـذي تَلَقّـاهُ رسـولُ اللهِ ﷺ من جبريل عليه السلام، ثم حفظه، ثم أَمَرَ الصَّحابـةَ بحِفْظِه، وبعدَ ذلك أَمَرَهم بكتابته.

والكلامُ عن عناصِرِ الكتابـةِ: الحَرْفِ، والقَلَمِ، والسَّـطْرِ، في ثاني ما نَزَلَ من القرآن، على النبيِّ الأُمِّيِّ ﷺ، فيه إِشارَةٌ أُخرى إِلى أَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وليس كلامَ محمدٍ ﷺ.

ولو كانَ من كلامِهِ هو، فما مَعنى أَنْ يكونَ الكلامُ عن القراءةِ في أَوَّلِ ما يقول؟ وَأَنْ يكونَ الكلامُ عن الكتابةِ في ثانـي ما يَقول؟ وكيفَ يَدورُ في خلدِ الأُمِّيِّ الذي لا يَقرأُ ولا يَكتبُ افتتاحُ تأليفِه بالقراءةِ والكتابة؟.

إِنَّ اختيارَ اللهِ لأَنْ يَكونَ أَوَّلُ ما نزلَ مـن كلامِهِ يتكلَّمُ عن القراءة، وثاني ما نَزَلَ يتكلَّمُ عن الكتابَة، ليُشيرُ - بالإِضافةِ إِلى ما قُلْناه - إِلى أَهميةِ العلْمِ والمعرفةِ في الإِسـلام، وأَهميةِ العمليـةِ التعليمية - قراءَةً وكتابة - في فَهمِ وحفظِ القرآن، وفي تَعَلُّمِ أَحكامِ الإِسلام.

ب - القراءة والكتابة وسيلتا حفظ القرآن:

أَشهرُ اسْمَيْن لكتابِ اللهِ هما: القرآنُ والكتاب.

وقد عَرَفْنـا أَنَّ إِشـارَةَ «القُرآن» للجمْـعِ اللفظيِّ للقرآن، وإِشـارَةَ «الكتابِ» للجمعِ الكتابيِّ له.

وهناك حكمةٌ تَبدو لنا من تسـميتِه بكُلٍّ من القـرآنِ والكتاب: إِنهما يوحِيانِ لنا بوسـيلتَيْن أَساسـيتَيْن لحفْظِ القـرآن، وهما: وَسـيلةُ القراءةِ والحفظ، ووَسيلةُ الكتابةِ والتدوين.

وكان مَـنْ أَرادَ أَنْ يَحفظَ وثيقةً هامَّةً في الأَزمـانِ الماضية لا يَجدُ أَمامَه إِلَّا الحفـظَ والكتابة؛ فهو يَحفظُها لئلا تُـزَوَّرَ، وهو يكتُبُها ليَعودَ إليها عند توثيقِ حِفْظِه وتَثْبيتِه.

ولقد أَلهمَ اللهُ المسلمينَ هاتيْن الوسيلَتيْن لحفْظِ كلامِه، حيثُ كانوا يَحفظونَه حِفْظًا مُتْقنًا، وكانوا يَكْتُبونَه في المصحفِ.

واسْتَمرَّتِ الوَسـيلَتان معتمدتَيْن حتى الآن في حِفظِ كَلامِ اللهِ، ففي كُلِّ وَقْتٍ يتخَرَّجُ «حُفَّاظٌ» لكتابِ اللهِ، وفـي كُلِّ عامٍ تصدُرُ طبعاتٌ من المكتباتِ لكلامِ اللهِ.

ثم إِنَّ الحافِظَ لن يحفظَ القرآنَ إِلَّا مـن المصحفِ المكتوب، فهو يَعودُ له، ويُحاكِمُ حِفْظَه إليه.

وإِنَّ التَّرخيـصَ لأَيَّةِ طَبْعةٍ للمصحف، من أَيِّ دارِ نَشْـرٍ، لا يتمُّ إِلَّا بإِحالَةِ المصحفِ المطبـوعِ على «حافِظٍ» لكتـابِ اللهِ، ليدقِّقَ الطِّباعَة، ويتأَكَّدَ من موافقتِها لما يَحفظُ.

فالمحفوظُ يُحاكَمُ للمكتوب، والمكتوبُ يُدَقَّقُ وِفْقَ المحفوظ.

ونُشـيرُ هنا أَيضًا: إلى أَنَّ المُصحـفَ الذي بين أَيدينـا، هو نفسُ المصحفِ الذي كَتَبه الصَّحابة، أَعْني: هو نفسُه بكلماتِه وحروفه.

ج ـ وصولُ القرآن إلينا بالسَّند المُتَّصل:

وإِنَّ ما تعلَّمْناهُ من قراءةِ القرآنِ وترتيلِه على أَيْدي مشـايِخنا علماءِ التَّرْتيل، قد وَصَلَنا بالسَّـنَدِ المتَّصِـلِ إلى رسـولِ اللهِ ﷺ، حيثُ تَلَقَّى الصَّحابَةُ القـرآنَ بلَفْظِه وترتيلِه وحركاتِه من رسـول اللهِ ﷺ، ثمَ أَبْلَغوهُ

للتّابِعين علــى هذه الصُّورَة، الَّذين أَوْصَلوهُ على هــذه الصُّورةِ إلى مَنْ بَعْدَهم.. واســتمرَّت الأَجيالُ المتتابعةُ من المســلمين، في تَلَقّي القرآنِ على هذه الصُّورةِ المُسْنَدَةِ المتَّصِلَة.

ولم يتحقَّقْ هذا الاتصالُ الوثيقُ المُسْــنَدُ لأيِّ كتابٍ سَــابقٍ من كُتُبِ الله.

وقد لاحَظَ بعضُ العُلماءِ السَّابقين حِكَمًا أُخْرى من تسميةِ كتابِ اللهِ بكُلٍّ من القرآنِ والكتاب، الدَّالَّيْن على معنى الجمعِ والضَّمِّ.

فقالوا: سُــمِّيَ كِتابًا مــن الجَمْعِ؛ لأنــه جَمَعَ أَنواعًا مــن القَصصِ والآياتِ والأَحكامِ والأخبار، وغير ذلك.

وقالوا: سُمِّيَ قُرآنًا من الجَمْع؛ لأنه جَمَعَ السُّورَ بَعْضَها إلى بعض.

أَو: لأَنَّه جمعَ ثَمراتِ الكُتبِ السَّابقةِ المُنَزَّلَة.

أَو: لأَنَّه جمعَ أَنواعَ العُلومِ كُلِّها.

٣ ـ معنى الذِّكْر:

سَمَّى اللهُ كتابَه «ذِكْرًا»، وَوَرَدَ هذا الاسْمُ في عِدَّةِ آيات:

ـ منها: قوله جَلَّ جَلالُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ـ ومنها: قولُه سُبحانه وتعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

ـ ومنها: قولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [صٓ: ١ ـ ٢].

والذِّكْرُ مَصْدَر. تقولُ: ذَكَرْتُ، أَذْكُرُ، ذِكْرًا.

وَوَجْهُ تسميةِ القرآنِ ذِكْرًا، لما فيه من المواعِظِ والزَّواجِرِ والموقِظات، التي تُذَكِّرُ قارِئَه، وتوقِظُ قَلْبَهُ، وتصِلُه باللهِ، وتَزْجُرُه عن المعاصي.

وهُناك مَعْنى آخرُ للذكْر، وهو الشَّرَفُ والمنزلةُ العالية.

وَوَجْهُ تسميةِ القرآنِ ذِكْرًا على هذا المعنى: أَنه ذو شَرَفٍ عالٍ، ومنزلةٍ ساميةٍ.

أ ـ القرآن ذكرٌ وشرفٌ للأمة:

القرآنُ يحققُ الذِّكْرَ والشَّـرفَ والمنزلَةَ والرِّفْعة لمن يحملُه ويعملُ به، من الأفرادِ والجماعات.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

والخطابُ في هذه الآيةِ للأُمَّـةِ التي أَنزلَ اللهُ لها القرآن، من العربِ والمسلمين، يُخبرُهم اللهُ: أَنه أَنزلَ لهم القرآن، نعمةً منه، وجَعَلَ في هذا القرآنِ ذكْرَهم، وشَرَفَهم، ومنزلَتَهم، ومكانَتَهم.

ومن هذا البابِ: قولُه تعالى عـن القرآن أيضًا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

يُخبِرُ اللهُ رسولَه ﷺ: أَنَّ القرآنَ ذِكْرٌ وَشَرَفٌ له، وذِكْرٌ وشَرَفٌ لقومِه.

وهذه حَقيقةٌ قاطِعة، شَهِدَ التَّاريخُ الإسلاميُّ بصِدْقِها.

فالعربُ قبلَ القـرآنِ لم يكنْ لهم ذِكْرٌ، ولا شـرفٌ، ولا منزلَةٌ بين الأُمم، وكانوا مشغولين فيما بينهم بالسَّلْبِ والنَّهْبِ والقَتْل.

فلمَا أَسـلموا، وعاشـوا مع القرآنِ بصِدْقٍ، جاهَدوا في سبيلِ الله،

ونَشَـروا الإِسْـلامَ بين الآخَرين، وأَقاموا دَولَةَ القـرآن، ورفعوا لواءَه، وصاروا بذلك في أرفعِ منزلَةٍ، وأَعْلى مكانَةٍ، وارتفعَ ذِكْرُهم وشـرفُهم بين الأُمم، وصاروا أَساتذةً وقادةً للعالَم.

واستمرّوا على هذه المنزلَة العالية السَّامية قُرونًا عديدةً.

ب ـ تفقدُ الأُمَّةُ ذِكْرَها بتركها القُرآن:

وفي هذا العصـر، خَلَفَتْ منهم خُلوفٌ سَـيِّئَةٌ، وظهـرتْ لهم نماذجُ مُشَوَّهَةٌ رَدِيئَةٌ، هَجَروا كتابَ الله، وتخلَّوا عنه، واعتنَقُوا ما يُخالِفُه من نَماذِج ومناهجِ الباطلِ والجاهلية، بل حاربوا القرآنَ، وعَمِلوا على إطفاءِ أَنْوارِه.

فَنَزلوا عن المنزلةِ العاليةِ التي تَبَوَّأَها أَسْلافُهم بالقرآن، وزالَ ذِكْرُهم وشَـرَفُهم بين الأُمم، وعادُوا إلى حياةِ الضَّياعِ والإهمالِ التي عاشَـها الجاهِليون قبلَ نُزولِ القُرآن.

فالقُـرآنُ ذِكْرٌ لأَهْلِه، والسَّـبيلُ الوحيدُ لشَـرَفِهم ومَرْكَزِهم في هذه الدُّنيا. وكذلك على مسـتوى الأَفراد، فالقـرآنُ يرفَعُ ذِكْـرَ مَنْ يحفظُه ويتدبَّرُه، ويُطبقُه، ويَدعو إليه، ويَدورُ معـه، ويُحققُ له منزلَتَه، ومكانَتَه في قومِه، ويُعْلي له شَرَفَه بينهم.

٤ ـ معنى الفُرقان:

سَمَّى اللهُ كتابَه «فُرْقانًا».

والفُرقانُ مصدَر. تَقول: فَرَقَ. يَفرُقُ. فَرْقًا، وفُرْقانًا.

والفُرْقانُ: تَفْريقٌ بين شَيْئَيْن حِسِّـيَّيْن تَفْريقًا حِسِّيًا، أَو فَصْلٌ وتَفريقٌ بينَ أَمريْن معنويَّيْن نظريَّيْن.

قالَ اللهُ تعالى عن القرآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقالَ تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وسُمِّيَ القرآنُ فُرْقانًا؛ لأَنَّ اللهَ فَرَّقَ به بين الحَقِّ والباطل، والهُدى والضَّلال، والإيمانِ والكفر، والمؤمنِ والكافر، والإسلامِ والجاهلية.

القرآنُ الفرقانُ هو أَساسُ التَّفريقِ والفَصْلِ والتمييز و«الفَرْز»، في الأَقوالِ والأَعمال، وفي النَّظرياتِ والأَفكار، وفي المناهجِ والتَّشريعات، وفي المبادئ والأسس، وفي جوانبِ ومجالاتِ الحياةِ: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والفنية، والخلقية.

أ ـ التَّفريق بالقُرآن:

بالقرآنِ الفرقانِ انقسمَ النَّاسُ إلى فريقين: الفريق المنحاز إلى القرآنِ وجنودِهِ وأَوليائه، وهمُ المؤمنون الصَّالحون، الأَتقياءُ الأَولياء.

والفريق المقابل للقرآن، الرافض له، المحارِب له ولأَوليائِه، وهم الكافرون والمنافقون والظالمون.

بالقرآنِ الفرقانِ انقسمتِ الأُمورُ إلى قسمَيْن: ما وافقَ القرآنَ أَو صَدَرَ عنه، من الأَشياءِ والأَفكارِ والأَحداثِ والأَعمال، فهو الحَقُّ والهدى والصَّواب.

وما خالَفَ القرآنَ من هذه الأمور، فهو الباطِلُ والخَطَأُ والضَّلال.

جعلَ القرآنُ الفرقانُ الحياةَ «ثنائِيَّةً» مُحَدَّدَة، وقَسَمَها إلى خَطَّيْن

مُتوازيَيْن، متباينَيْن مُتَضادَّيْن، وجَعَلَهما لونَيْن واضحَيْن متميزَيْن: أَبيض وأَسْود، نور وظلام، هُدًى وضَلال، حَق وباطل.

وصَدَقَ اللهُ القائل: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

ب ـ فُرقَانان آخَران بالقُرآن:

وينتجُ عن الفرقانِ بالقرآنِ فرقانانِ آخران، أَشارَتْ إليهما آياتُ القرآن:

الفُرقانُ الأول: أَشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهذا فرقانٌ للأفراد الذين يَتَّقونَ الله، ويَلتزمونَ بطاعَتِه، ويَعيشونَ مع أَنوارِ حقائقِ القرآن، ويَنظرونَ إلى ما حولَهم بمنظارِ القرآن.

القرآنُ في هذه الحالةِ يُريهم الأَشياءَ على حقيقَتِها، والأَحداثَ على طبيعَتِها، فيَعرفونَ قيمَتَها وَوَزْنَها، وحُكْمَها ومَعناها؛ فلا تلتبسُ عليهم الأمور، ولا تخدَعُهم الأَلاعيبُ، ولا تَغُرُّهمُ المَظاهِر.

وبذلكَ يجعلُ اللهُ لهم «فُرْقانًا»، يُفرِّقُونَ به بين الحَقِّ والباطل، ويَجعلُ لهم بَصيرةً يَكْتَشفون بها الحقائق، ويَجعلُ لهم «فراسَةً»، يتوقّعونَ بها الأَخطارَ قبلَ وُقوعِها، ويَرونَ بها ما لا يَراهُ الآخَرونَ من الخَفايا.

الفُرقانُ الثاني: أَشارَ إليه قولُه تعالى عن غزوةِ بَدْرٍ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١].

يومُ بَدْرٍ هو يَوْمُ الفُرْقان؛ لأَنَّ اللهَ فَرَّقَ به بين الحَقِّ والباطل، وفَرَّقَ فيه بين فَرِيقِ الحَقِّ وفَرِيقِ الباطل.

نَصَرَ اللهُ ـ في يومِ الفُرْقان ـ الفريقَ الذي انحازَ إلى القرآنِ الفرقان، وهَزَمَ اللهُ الفَريقَ الآخَرَ الذي خالَفَ خَطَّ القرآن.

وهذا فُرْقـانٌ عمليٌّ جِهـادِيٌّ، وهـو ناتجٌ عـن الفرقـانِ النَّظريِّ «البَصائِرِيِّ» الذي حَقَّقَه القرآنُ لأَصْحابِ الفُرقان!.

* * *

ثانيًا

من أوصاف القرآن



بعدَ وَقْفَتنا مع معاني أَسماءِ القرآنِ الأَربعة: القرآن، والكتاب، والفرقان، والذِّكْر، نتوقَّفُ قليلًا لنتعرَّفَ على أَوصافِ القرآن، كما عَرَضَتْها الآياتُ، ونَمُرُّ بها مُرورًا سَريعًا، ولا نَقفُ أَمامَها طويلًا كما وَقَفْنا مع أَسماءِ القرآن، وقد نتكلَّمُ عن بعضها في المباحثِ التالية:

• أوصاف القرآن كما عرضتها الآيات:

١ - القرآن روح:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

القرآنُ روحٌ تَدبُّ في قُلوبِ المؤمنين، فَيَحْيَوْنَ حياةً كَريمة.. وكُلُّ مَن الْتَزَمَ بالقُرآن فهو حَيٌّ، وروحُهُ قويَّةٌ مُشْرِقة.. وكُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عن القرآنِ فهو مَيِّتٌ في قَلْبِه، وإنْ كانَ يتحرّكُ حركةً مادِّيَّةً «بيولوجيَّة».

والقرآنُ روحٌ تَدبُّ في الأُمَّة، فَتُحْييها، وتَجعلُها رائِدَةً للأُمم، والأُمَّةُ من دونِ القرآنِ مَيِّتَةٌ في بَرامجِها ومَناهجِها.

والقرآنُ روحٌ وحياة، يَجعلُ لحَياةِ البشريةِ هَدَفًا وطَعْمًا ولَوْنًا،

ويَرْتَقي بهذه الحياة، ويَجعلُها حياةً إنسانيةً تَليقُ بكرامَةِ الإنْسان. وما أَقسى الحياةَ البشرية عندما لا تَنبثقُ عن القرآن، وعندما تفقدُ روحَ القرآن، حيثُ تتحوَّلُ إلى حياةٍ آليَّةٍ رتيبةٍ مُمِلَّةٍ مُتْعِبَةٍ، ويتحوَّلُ الإنسانُ فيها إلى إنسانٍ آليٍّ «روبوت» يتحرَّكُ، لكن من دونِ قلبٍ أو روحٍ أو شُعور.

٢ ـ القرآن نور:

قالَ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

فهو بُرْهانٌ واضِحٌ، ودَليلٌ ساطِعٌ، وحُجَّةٌ قويَّة، وهو نورٌ مبين، يُنيرُ حياةَ المسلمين.

ودَعا اللهُ أَهْلَ الكتابِ إلى الاهْتِداءِ بهَدْيِ القرآن، والاستنارَةِ بنورِه، والخروجِ من ظُلُماتِ الكفرِ والجاهلية: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

ومُهِمَّةُ الرسولِ ﷺ، ومُهِمَّةُ أَتْباعِه من بعدِه، من العلماءِ والدُّعاةِ والصَّالحين، هي أَنْ يَحْمِلوا هذا القرآنَ للناس، وأَنْ يَنْشُروا نورَه بينَ الناس، وأَنْ يُبَدِّدوا بنورِه ظلامَ الجاهِلِيَّة والباطل، وأَنْ يُخْرِجوا النَّاسَ من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ القرآن؛ قالَ تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

ولما يَحيا المسلمُ بروحِ القرآن، ويُنيرُ حياتَه بأنوارِ القرآن، ويَمشي بين الناس بهذا النّور، يَسْعَدُ بذلك، ويتميَّزُ به عن الكافرِ المَيِّتِ الذي يَخبطُ في الظلمات: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٣ ـ القرآن هدًى ورحمة:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

والهُدى: هو الإرشادُ والدِّلالَةُ، فالقرآنُ هُدًى يَهْدي المُتَّقين، ويُرشِدُهم إلى طريقِ الخير، ويَدُلُّهم على طريقِ الجنة.

وقال تعالى: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١ ـ ٢].

جمعت الآيةُ بين كونِ القرآنِ هدًى، وكونِه بُشرَى للمؤمنين، والبُشرى نتيجةٌ وثمرةٌ للهُدى، فمن اهْتَدى به، فإنه يَستبشرُ بالجَنَّة.

وقالَ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ١ ـ ٣].

فالقرآنُ حَكيم، وهو هدى ورحمةٌ للمؤمنينَ المحسنينَ الصَّالحين، إذْ إنَّهم عندما يَهْتَدونَ به، ويعيشونَ في ظِلالِه، فإنهم يَنالونَ بذلك رحمةَ الله.

والقرآنُ هادٍ يَهدي المؤمنينَ بإذنِ الله، لكلِّ ما فيه الخيرُ لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقد قَصَرَ اللهُ الهُدَى على القرآن، فلا هـدى في غيره، مما يأتي به الناسُ من مناهـجَ وتصوُّراتٍ ونُظُـم، فما هي إلَّا أَهـواء زائفةٌ باطلة. فالهُدى الربانيُّ في القرآن، في مقابلِ الهوى البشريِّ في الجاهلية.

قالَ تعالـى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد أَوجـبَ اللهُ على المؤمن الذي يهتدي بهَـدْيِ القرآن أَنْ يَهديَ غيـرَه إليـه، وأَنْ يَدْعُـوَه إليـه، وأَنْ يَقْتَدي فـي ذلك بإمـام الهُدى رسـولِ اللهِ ﷺ، الذي قالَ اللهُ لـه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

٤ ـ القرآن بيانٌ وبلاغ:

جعلَ اللهُ القرآنَ بلاغًا للناس، يُبَلِّغُهم فيه أَوامِرَه وشـريعَتَه، ليكونوا على حُجَّةٍ وبَيِّنَةٍ من أَمْرِهم، ولئلَّا يكونَ لهم حُجَّةٌ على الله.

قالَ تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

والبلاغُ فيه معنـى البَلاغَـةِ والفَصاحَةِ والتَّأثير، وهـذا مُتَحَقِّقٌ في القرآنِ إلى درجةِ الإعجاز.

كما أَنَّ فيه معنى البلـوغ والوصولِ إلى الغايَـة، أَي: الوصولُ إلى القلبِ والنفسِ والمشاعِرِ والأَحاسيس.

والقرآنُ يَبلغُ إلى القُلوب، ويُؤَثِّـرُ فيها، ويتفاعَلُ معها، ويُغَيِّرُها من حالةٍ إلى حالَة.

لكن من يحملُ القرآنَ وينشُـرُه؟ ومَنْ يَبْلُغ به قلوبَ الآخرين؟ إنَّه رسولُ اللهِ ﷺ، وأتْباعُه من بعْدِه، من العُلماءِ والدُّعاةِ والمُصلحين.

ولهذا أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ ـ وهو أَمْرٌ يَنسحبُ على الدُّعاة والعُلماءِ من بعدِه ـ بتبليغ القرآنِ للنـاس، وحَمْلِه إليهم، ليَبْلُغَ قُلوبَهم، فقالَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقـد أَخْبَرَنا اللهُ: أَنَّ القـرآنَ بَيانٌ، وكِتـابٌ مُبين، بَيَّـنَ اللهُ فيه كُلَّ ما يَحتاجُه المسلمونَ في حياتِهم.

قالَ تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالقرآنُ بيانٌ عامٌّ للناس، وخِطابٌ مُوَجَّهٌ إليهم، وإعلانٌ مفتوحٌ لهم، ليَعرفوا ما لهم وما عليهم.

وبَيَّنَ اللهُ في هذا القرآنِ كلَّ شـيءٍ، وجَعَلَه تِبْيانًا لكُلِّ شـيءٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

وأَمَرَ اللهُ الرسولَ ﷺ أَنْ يُبيِّنَ للنّاس ما في القرآن مِنْ بيان، وهو أَمْرٌ ينطبقُ علـى كُلِّ عالمٍ ومُصلحٍ من بعدِه؛ فقـال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤].

وبسببِ ما في القرآنِ من بَيانٍ وتِبيانٍ، أَخبرَ اللهُ عنه أَنه كتابٌ مبينٌ، فقال: ﴿ طسٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الشعراء: ١ ـ ٢].

والمسلمُ الذي يتعامَلُ مع بيانِ القرآن ببلاغةٍ وفَصاحَة، يمتلِكُ ناصيةَ البَيان، ويكونُ كلامُه مُبينًا، وبيانُه فَصيحًا، وأُسلوبُه بَليغًا، وعبارَتُه مُؤَثِّرَة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

• أَوصافٌ أُخرى للقرآن:

أَوردت الآياتُ أَوصافًا أُخْرى للقرآن؛ منها:

١ ـ القرآنُ شِفاءٌ:

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقالَ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

٢ ـ القرآنُ بصائِرُ هادية:

قالَ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

٣ ـ القرآنُ عَلِيٌّ حكيمٌ:

قالَ تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ ـ ٣].

وقالَ تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

٤ ـ القرآنُ مباركٌ:

قالَ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقالَ تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

٥ ـ القرآنُ مُهيْمِنٌ:

قالَ تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

٦ ـ القرآنُ قولٌ فَصْلٌ:

قالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٤].

٧ ـ القرآنُ قَيِّمٌ لا عِوَجَ فيه:

قالَ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: ١ ـ ٢].

٨ ـ القرآنُ أَحسَنُ الحديثِ:

قالَ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

٩ ـ القرآنُ عربيُّ اللغة والأسلوب:

قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١ ـ ٢].

١٠ ـ القرآنُ تنْزيلٌ:

قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

١١ ـ القرآنُ تذْكِرَة:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۞ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٤٨ ـ ٥١].

١٢ ـ القرآنُ عزيزٌ:

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

وهناك أَوصافٌ أُخرى للقرآن، أَوْرَدَتْها آياتُه البَيِّنات، يمكنُ لقارئ القرآن ملاحظَتُها أَثناءَ تِلاوَتِه له.

❊ ❊ ❊

ثالثًا

كيف ننظر إلى القرآن؟



• نظراتٌ خاطئةٌ للقُرآن:

هناك نظراتٌ مختلفة، ينظرُ أَصحابُها نحو القرآن:

ـ فمنهم: مَنْ يَنظرُ له من دونِ قداسَةٍ أَو توقيرٍ، وإنما كما يَنظرُ لأَيِّ كَلامٍ بشـريّ، وَيتعامَـلُ معه كما يتعامَـلُ مع كَلامِ أَيِّ إِنسـانٍ، فيضعُ القَداسَـةَ جانبًا مُدَّعِيًا أَنه يَلبسُ ثوبَ المنهجيةِ والعلميةِ والموضوعية، زاعِمًا أَنه بهذا يكونُ أَقدَرَ على فهمِ أُسلوبِ ومعاني القرآن!.

ـ ومنهم: مَـنْ يَنظرُ له باعتبـارِه كَلامًا أَدَبيًّا بَليغًا، بَلَـغَ الذّروةَ في البلاغَـةِ والفصاحَة، تلك الذّروةُ التي بَلَغَتْ حَـدَّ الإعجاز، فيُحَلِّلُه كما يُحَلِّلُ أَيَّ نَصٍّ أَدبيّ، ويَنقدُه كما ينقُدُ أَيَّ نصٍّ أَدبيّ، ويزعمُ: أَنَّ هذا من لوازِمِ الدّراسةِ الأَدبيةِ النّاجحةِ للقُرآن!.

ـ ومن المسـلمين: مَنْ لا يَنظرُ للقرآنِ نظرةً خاصّة، تَليقُ به باعتبارِهِ كلام الله، فلا يتعامَلُ معه بإِجلالٍ وتَوْقير، ولا يَتْلوه أَو يدرسُـه أَو يفهمُه بالآدابِ التي قَرّرَها العلمـاء، وفي مقدمتهم الإمامُ النَّـوَوِيُّ في كتابه المُفيدِ «التبيان: في آداب حملة القرآن».

وهذه نَظَراتٌ ثلاثٌ خاطِئَةٌ ومرفوضة.

فما هي النظرةُ المُثْلَى الصَّحيحةُ التي يَجِبُ أَن ننظرَ للقرآن من خلالِها؟ وماذا يجبُ أَنْ نستحضرَ في نفوسِنا عندما نتلو القرآنَ؟ أَو عندما نتدبَّرُه ونفهمُه؟ أَو عندما نقومُ بتفسيره وتأْويله؟.

• كيف نتكلم عن الله؟:

إن القرآنَ كلامُ الله، وهذه حقيقةٌ بدهيَّةٌ لا شكَّ فيها، ولكن نُريدُ أَنْ نبنيَ عليها أَمْرًا آخَر.

ما هو الذي يجبُ أَنْ نستحضِرَه في نفوسِنا عندما نتذكَّرُ اللهَ رَبَّ العالمين؟ أَو عندما نذكُرُه؟ أَو عندما نَصِفُه ونتحدَّثُ عنه، ونُبَيِّنُ أَسماءَه وصفاتِه وأَفعالَه؟.

إِنَّ اللهَ رَبَّ العالمين هو ذو الجَلالِ والإكرام، وله الأَسْماءُ الحُسنى، والصفاتُ العُليا، والأَفعالُ الحكيمةُ المجيدة.

ويَجِبُ علينا أَنْ نُقَدِّرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه، وأَنْ نُوَقِّرَه حَقَّ توقيرِه، وأَنْ نُعَظِّمَه حَقَّ تَعْظِيمه، وأَنْ نُجِلَّهُ حَقَّ إِجْلالِه، ونُنَزِّهَهُ حَقَّ تَنْزِيهه.

وعندما نتكلمُ عن الله، أَو نصِفُ اللهَ، أَو نتصلُ باللهِ ذاكرين، يجبُ أَنْ يكونَ ذلك كُلُّه مَحْكومًا بهذه القاعدة، ومُنْطَلِقًا منها؛ فلا نَنْسَى ما يستحِقُّه اللهُ من إِجلالٍ وتَقديرٍ وتعظيمٍ وتَوقيرٍ وتَنزيه.

وقد ذَمَّ اللهُ الذين لا يُوَقِّرونه ولا يُقَدِّرونَه، من الكفارِ والمشركين، فقالَ اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وذَمَّ نوحٌ عليه السلام قومَه بسببِ ذلك؛ فقالَ لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤].

هكذا ننظر إلى القرآن!..

انطلاقًا من نظرتنا إلى الله، وما تستوجبُه من إجلالٍ وتَوقيرٍ وتَعظيمٍ، يجبُ أَنْ تكونَ هي نظرَتنا إلى كتابِه الكريم.

لأَنَّ القرآنَ كَلامُ الله، وكلامُ اللهِ صِفَةٌ من صِفاتِه، القائمةِ بذاته، التي لا يَنفكُّ ولا يتخَلَّى عنها سبحانه.

وتَوْقيرُنا للهِ تَوْقيرٌ لصفاتِـه، ولذلك يَجبُ أَنْ نتعاملَ مع كلامِه على هذا الأَساس.

إِذًا: نظرَتُنا للقرآنِ الكريـم، يَجبُ أَنْ تكونَ ممزوجَـةً بالتَّوقيرِ له، ومنطلقةً من إِجلالِه وتعظيمِه وتقديسِه.

يَجبُ أَنْ نستصحبَ هذه النظرةَ أَثناءَ اتِّصالِنا بالقرآن، وتعامُلِنا معه، فتستحضر نفوسُنا، وتستشـعر قلوبُنا ما يجبُ علينا للقرآن، من احترامٍ وإِجلال، وتعظيمٍ وتوقيرٍ وتقديسٍ.

نَسـتحضرُ ذلك ونحن نقرَؤُه ونَتْلوه، فتكونُ تِلاوَتُنا له وِفْقَ الآدابِ التي تُراعي هذه النظرة.

ونَستحضرُ ذلك ونحنُ نحفظُه ونردِّدُه، ونُثَبِّتُ حِفْظَنا له، ونتعاهَدُه.

ونسـتحضرُ ذلك ونحن نسـتمعُ لتلاوتِه من قارئين آخرين، سواءٌ كانوا أَشْخاصًا يَقرؤونَه أَمَامَنا، أَم كانوا قارِئين مُجَوِّدين.

ونَستحضرُ هذه النظرَة ونحنُ نتدبَّرُ القرآنَ، ونفهمُه ونتذوَّقُ آياتِهِ.

ونَستحضرُ هذه النَّظرَة ونحنُ نَصفُ القرآن، ونتحدَّثُ عنه، ونَعرضُ علومَه ومعارِفَه، ونقدمُ للناسِ آياتِه ومعانيه وحقائِقَه.

ونَســتحضرُ هذه النظرةَ ونحنُ نَقومُ بتفســيرِه وتأويلِه، ونُحَلِّلُ آياتِه وجُمَلَه وتَراكيبَه.

ونَســتحضرُ هذه النَّظرةَ ونحنُ نتــذوَّقُ بيانَه، ونَقــفُ على بلاغَتِه، ونَعيشُ مع فصاحَتِه، ونحاولُ إدراكَ مظاهرِ إعجازِه.

بهذا الإجلالِ والتوقيرِ نتعامَلُ مع القرآن، وبهذه القداسَــةِ والعظمَةِ ننظرُ للقرآن.

• ممارساتٌ خاطئةٌ في التَّعامل مع القرآن:

هناك بعضُ الممارســاتِ الخاطئةِ التي تصدرُ عن بعضِ المسلمين، في تعامُلِهم مع القرآن: تلاوةً، أَو حِفْظًا، أَو تَدَبُّرًا، أَو تَحليلًا.

وهذه الممارساتُ والتصرفاتُ لا تَتَّفقُ مع ما يستحقُّه القرآنُ مِنّا من إجلالٍ وقَداسَةٍ. من هذه الممارساتِ الخاطئة:

١ ـ الذي يقرأُ القرآنَ دونَ إتْقانٍ للقِراءة، ودونَ ضبطٍ لها:

فلا يُحسنُ قراءةَ كلماتِ القرآن ـ التي يُخالفُ رَسْمُها وكتابتُها في المصحف قواعِدَ الإمـلاءِ والكتابةِ الحديثة ـ ولا يُحســنُ تشــكيلَ كلماتِ القرآن. ولا يســعى للتعَلُّم، لإتقانِ وضبطِ القــراءَةِ أَمامَ قارئٍ متقنٍ للقرآن.

وما درى هذا المقصِّرُ، أَنَّ قراءَتَه الخاطِئـةَ للقرآن، ونطقَه الخاطئ لبعضِ الكلماتِ والحروفِ والحـركات، يُعتبرُ صورةً من صورِ تحريفِ القرآن، والافتراءِ على الله، وأَنَّ اللهَ سيسـأَلُه عن ذلك، ويحاسِـبُه عليه، لتقصيرِه في التعلُّمِ والضَّبط.

٢ ـ الذي لا يَقْرَأُ القرآنَ وِفْقَ قواعِـدِ التَّرتيل، وإِنَّما يقرؤُه كما يقرأُ أَيَّ كَلامٍ عادِيٍّ، في صحيفةٍ أَو مجلَّةٍ أَو كتاب:

لقد أَمَرَ اللهُ بترتيلِ القرآن، فقال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

وترتيلُ **القرآنِ**: هو تَحسـينُ تلاوتِه، وضبطُ مخارجِ حروفِه، وإِتقانُ تجويدِه؛ وذلك بقراءَةِ القـرآنِ وِفْقَ قواعِدِ التَّرتيل الَّتـي كان الصَّحابَةُ يَقرؤونَه عليها، والتي تلَقَّوها من رسولِ اللهِ ﷺ.

تلك القواعـدُ المتعلقةُ بأَحـكامِ النُّونِ السـاكنةِ والتنوين، وأَحكامِ الميمِ والرّاء، والمُدودِ المختلفة، ومخارجِ الحروف وصفاتها.

وعلى هذا يقولُ عُلَماءُ الترتيل[1]:

وَالعِلْـمُ بِالتَّرْتيـلِ حَتْمٌ لازِمُ   مَنْ لَـمْ يُرَتِّـلِ القُـرآنَ آثِمُ
لأَنَّـهُ بِـهِ الإِلَـهُ أَنْـزَلا   وَهَكَـذا مِنْـهُ إِلَيْنـا وَصَـلا

ونُسـارِعُ فنقولُ: إِنَّ أَحكامَ التَّرتيل لا يمكنُ إِتقانُها بالقِراءَةِ الذَّاتية، فلا بُدَّ من أَخْذِها عن قارئٍ مُتْقِنٍ للقرآن، ولا بُدَّ من ملاحَظَةِ حَرَكَةِ فَمِهِ

(١) بعضُهم يسمّي عِلْمَ الترتيلِ: عِلْمَ التجويد، ويُسَمّي قواعِدَه: قواعدَ التجويد. ويعني بالتجويد: الإتقانَ والتحسين. لكننا لا نرى استخدامَ هذا المصطلح ونُؤثِرُ استخدامَ ما أَورَدَه القرآن، وهو الترتيلُ. فنقول: عِلْمُ الترتيل، وقواعِدُ وأَحكامُ الترتيل.

وشَـفَتَيْه وهو يُراعيها، ولا بُدَّ من التَّدَرُّبِ والمرانِ عليها، بإشرافِ ذلك القارئ.

٣ ـ الذي يَقْرَأُ القرآنَ وهو على غيرِ وُضوءٍ:

صحيحٌ أَنَّ الراجحَ ـ حسبَ النُّصوص ـ عَدَمُ حرمةِ قراءةِ القرآنِ من المصحف أَو اسـتظهارِه غَيْبًا، والقارئُ غيرُ مُتَوَضِّئٍ، وأَنَّ الرَّاجحَ جوازُ قراءَتِه لغيرِ المتوضِّئ.

لكنَّ هذا الحكمَ الفقهيَّ ـ الراجحَ عندنا ـ شيءٌ، وقراءَةُ القرآن وفقَ ما يستحقُّه القرآنُ من توقيرٍ وقداسةٍ شيءٌ آخَر.

إِنَّ مما يتفقُ مع هذه النظرةِ أَنْ يقرأَ المسـلمُ القرآنَ وهو متوضئ؛ لأَنَّ القراءَةَ للقـرآن عبادَة، والوضوءُ بحدِّ ذاتِه عبـادَة، واجتماعُهما معًا عبادة على عبادَة. أَيْ: نورٌ على نور.

٤ ـ الذي تكونُ جلسـتُه وحالَتُه أَثنـاءَ تلاوتِه للقرآن، غيرُ مناسِـبَةٍ ولا لائِقَة:

كأَنْ يقرأَ القرآنَ من المصحف، وهو مُسْـتَلْقٍ على قَفاه، وهو رافعٌ إِحدى رجلَيه، أَو يقرأَ القرآنَ وهو يأَكلُ أَو يشـرب، أَو يقرأَ القرآنَ وهو يشـربُ الدُّخان، أو يقرأَ القرآنَ وهو يتكلَّمُ مع شـخصٍ آخر، أَو يقرأَ القرآنَ وهو مُتابعٌ للتلفزيون أَو الفيديو.

إِنَّ مما يَليقُ بالقرآنِ أَنْ يقرأَهُ المسـلم، وهو جالسٌ جلسـةَ عِبادَة، مسـتقبلَ القبلَة ـ إِنْ أَمكن ـ ، غيرَ مشغولٍ بالشَّواغِلِ الدُّنيويةِ الأُخرى، غيرَ منصرفٍ عن تَدَبُّرِ القرآنِ بأُمورٍ أُخرى.

وأَنْ يَجمعَ قَلْبَه وَعَقْلَه وذِهْنَه على القرآن، لملاحظةِ معانيه، وإِحسانِ تدبُّرِه، وإدراكِ دلالاتِه.

٥ ـ الذي يَسمعُ القرآن من غيرِه، لكنَّه لا يَستمعُ له:

لقد أَمَرنَا اللهُ بالاستماعِ لقراءَةِ القرآن، عندما يُقْرَأُ؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وهناك فَرْقٌ بينَ السَّماعِ والاستماع:

فالسَّماعُ: هو أنْ يسمعَ الصَّوتَ والكلامَ، وَأنْ يُدْخِلَه في أُذُنِه، لكنَّه قد لا يكونُ مُتَفاعِلًا معه، وقد لا يَكونُ قَلْبُه حاضِرًا مُتَدَبِّرًا لما يَسْمَع.

وأَحيانًا قد يكونُ السَّماعُ غيرَ إرادِيّ، وإِنَّما يَدْخُلُ الصَّوتُ الأُذُنَ من دونِ قَصْدٍ، أو تفاعُلٍ من الإنسان، وذلك مِثْلُ مُسْلِمٍ يَكونُ سائرًا في طَريقٍ، فيطرقُ أُذُنَهُ صَوْتُ لَغْوٍ أَو غِناء، فيسمعُه من دونِ قَصْد، لكنَّه لا يَرضاهُ، ولا يَنشرحُ له، ولا يَتَفاعَلُ معه.

وعلى هذا المَعْنى في السَّماعِ وَرَدَ قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

أَمّا الاستماعُ: فهو سَماعُ الصَّوْتِ بالأُذن أَوَّلًا، ثم إِشراكُ القَلْبِ واللُّبِّ والعَقْلِ والكيانِ في التفاعُلِ والتدبُّر، واستحضارُ ما يستحقُّه القرآنُ من إِجلالٍ وقَداسَةٍ، واسْتِخْراجُ ما يُمكنُ من دَلالاتٍ ومَعانٍ، وتَحصيلُ السُّرورِ والسَّعادةِ، والأُنسِ، والانشراح.

وحتى يُحَقِّقَ هذا الاستماعَ المطلوبَ لا بُدَّ أَنْ يُهَيِّئَ الجَوَّ العامَّ الذي يُعينُه عليه، ويَستجلبَ عواملَ وأَسبابَ الانتباه.

ومــن أَوّلِ ما يتطلَّبهُ ذلــك: أَنْ يُنْصِتَ هذا المســلمُ للقــراءةِ التي يَســمعُها، وأَنْ يجمَعَ قَلْبَه ووعْيَــه وكيانَه عليهــا، وأَنْ يتخلَّى عن كُلِّ ما يُشْغِلُه عنها.

ولِتحقيقِ ذلك، عليــه أَنْ يَتَخَلّى عــن أَيِّ عمَلٍ يَحــولُ بينَه وبين الاســتماع، كأَنْ يتكلَّمَ مع غيرِه أَثناءَ التّلاوة، أو يكونَ نائِمًا، أَو يكونَ مُتَناوِلًا طعامَه، أَو متابِعًا عَملًا أَو شيئًا آخَر.

فكيفَ يَستمعُ ويَستفيدُ وهو بهذه الشَّواغِل؟! إِنَّ اللهَ ما جَعَلَ لرجُلٍ من قلبَيْن في جوفِه!.

٦ ـ الذي يدخُلُ الخَلاءَ لقَضاءِ حاجَتِه، ومصحفُه في جيْبِه:

فإِنْ كانَ في بيتِه فيجبُ إِخراجُه من الجيبِ قبلَ دُخولِه الخَلاءَ.

أَمّا إِنْ كانَ في الشارع أَوِ السُّــوق، واضطرَّ لدخولِ مراحيضَ عامَّة، فإِنْ تمكَّنَ من تأْميــنِ مصحفِه عند آخَرَ أَمين، وَجَــبَ عليه فِعْلُ ذلك، ويَحرمُ إِدْخالُــه معه. وإِنْ لــم يَجِدْ أَحَدًا، فــلا مانِعَ مــن إِدْخالِه معه للضَّرورة، والضَّروراتُ تُبيحُ المَحْظورات.

٧ ـ الذي يَضَعُ المصحــفَ في مَكانٍ لا يَليقُ، أَو يتصــرَّفُ معه تصرُّفًا لا يَليق:

ومن صُوَر ذلك:

- أَنْ يَضَعَ كُتُبًــا وأَوراقًا ودفاتِرَ فوقَ المصحــف؛ لأَنَّ القرآنَ يَجبُ أَنْ يكونَ فوقَ كُلِّ شــيءٍ؛ لأَنه أَعْلى وأَشرفُ من كُلِّ شيءٍ.

- أَنْ يُمزّقَ المصحفَ إِلـى أَوراقٍ يضعُها في جيبه، أَو لحاجةٍ في نفسِه.
- أَنْ يَجعَـلَ القرآنَ «حجابًـا» أَو تميمةً يُعَلِّقُها علـى صَدْرِه، أَو يضعُها تَحْتَ وِسـادَتِه، أَو تحت عَتَبَةِ بابـه، وأَنْ لا يخلع هذا الحجاب، حتى لو أَصابَتْه جنابَة، أَو دَخَلَ الخَلاء. وأَن لا تخلَعَهُ المرأَةُ حتى وهي حائِضٌ أَو نُفَساء.
- أَنْ يحفـرَ أَساسـاتِ عمارَتِه، ثـم يجعلَ المصحـفَ في هذه الأَساسـات ثم يُغَطّيه بالبناءِ والإسـمنت، حتى يحفـظَ اللهُ له عِمارتَه، ببركةِ القرآنِ الذي في أَساساتِها.
- أَنْ يُعلِّقَ المصحـفَ عند بابِ البيت، أَو في سَـقْفِ الغرفَة، أَو سَقْفِ السـيَّارة دونَ أَنْ يقرأَه، ويفعلَ ذلك دَفْعًا للشَّرِّ والخَطَر، ومنعًا للحَسَد.
- أَنْ يَكتبَ القرآنَ كُلَّه بخَطٍّ صَغيرٍ غيرِ مقروءٍ، على وَرَقةٍ واحِدَة، وأَنْ يُعَلِّقَها على الجدار أَو في مكانٍ آخَر.

٨ ـ الذي يَسـتخدمُ القرآنَ في التَّعاويذِ والرُّقى والتَّمائِمِ والحُجُب، من الحَجّابين والفَتّاحيـن والسَّـحَرة، ويكتُبُه بطريقـةٍ غريبةٍ، بحيثُ تَتداخَلُ وتَتَشابَكُ حروفُه وكلماتُه، بطريقةٍ سحْرِيَّة.

٩ ـ الذي يَهجُم على تفسيرِ القرآنِ دونَ عِلْمٍ بآدابِ التَّفسير، ولا أُصولِ التَّأويل، ويفسِّـرُه وفْقَ هَـواهُ ومزاجِه ومصلحتِـه، وبذلك يُحَرِّفُ مَعانيه، ويُخطِئُ في فَهْمِه.

١٠ - الذي يَتَألَّى علـى اللهِ أَثْناءَ تفسـيرِه لَهُ، ويَجعـلُ فَهْمَه القاصِرَ الأَصْلَ، وهو مُراد اللهِ من كلامِه:

وذلك: كأَنْ يَقولَ في تفسـيرِ الآيَة: مُـرادُ اللهِ من كلامِه كَذا! فكيفَ عَرَفَ أَنَّ هذا مُراد اللهِ من كلامه؟! هل أَخبرَه اللهُ بذلك؟! ولا وَحْيَ بعدَ رسولِ الله ﷺ!.

أَو يقولَ: قَصْد اللهِ من الآيَةِ أَنْ يَقولَ لَنـا كذا! فكيفَ عَرَفَ أَنَّ هذا هو قَصْدُ اللهِ؟! ومَنْ أَدْراهُ بذلك؟!.

إِنَّ هذا هو التَّألِّي على اللهِ، وهو باطِلٌ مَرْدودٌ.

١١ - الذي يُفَسِّـرُ كَلامَ اللهِ الصَّحيح الصَّادق بالخُرافات والأَسـاطيرِ والإسرائيليات:

وهـي رواياتٌ لم تَصِـحّ، ذَكَرَها بَعْـضُ السَّـابقين، وأَوْرَدوها في تفسيرِهم لِقَصَصِ القرآن. فيُعْجَبُ المسلمُ بها، ويفَسِّرُ بها كَلامَ اللهِ.

١٢ - الذي يَصِفُ آياتِ وسُوَرَ القرآنِ بالصِّغَر:

فيقول: هذه آيَةٌ صغيرةٌ، وهذه سـورَةٌ صَغيـرةٌ. والصَّحيحُ أَنْ يقولَ: هذه آيَةٌ طَويلَةٌ أو قصيرة. وهذه سورَةٌ طَويلَةٌ أَوْ قَصيرَة.

* * *

رابعًا

حِفظُ اللّه للقُرآن

• أوْكَلَ اللّه إلى السَّابقين حِفظَ كُتُبِهم:

لما أَنزلَ اللهُ كُتُبَه السَّابقةَ على رسلِه السَّابقين، لم يتكَفَّلْ بحفظِها من التَّحريف، إنما أَوكلَ حفظَها إلى أولئك الأقوام، من اليهودِ والنَّصارى وغيرهم.. لكنَّ هؤلاءِ اليهودَ والنَّصارى لم يقوموا بما أَمَرَهم الله به، إنّما حَرَّفوا تلك الكتب.

قالَ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

والشَّاهدُ في الآية هو قولُه: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾.

أَيْ: أَوْكَلَ اللهُ إليهم حفْظَ التَّوراة، وطَلَب منهم أَنْ يَحْفظوها، وأَنْ يُحافِظوا عليها، وأَنْ يَصونوها من كُلِّ تحريفٍ أَو تبديل.

لكنَّهم حَرَّفوها وغَيَّروها وبَدَّلوها؛ قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟

سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

لقد طَلَبَ اللهُ من اليهودِ والنَّصارى حِفْظَ التَّوراةِ والإنجيل، وهو يَعلمُ أَنَّهم لن يلتزموا بذلك، وأنهم سيُحَرِّفونها ويُبَدِّلونها، وذلك: ليُقيمَ الحُجَّةَ عليهم، ويسجِّلَ جريمتَهم في عَدَمِ الحفْظِ لكتابه.

وإنَّ اللهَ يَعلمُ أَنه سينزلُ كِتابًا بعد تلك الكتب، وسيرسلُ رَسولًا بعدَ أُولئك الرُّسل، وهذا الكتابُ «القرآنُ» بَديلٌ لتلك الكُتبِ المحَرَّفَة، وعِوَضٌ عنها.. فلن يَضيعَ كلامُ الله، ولن تُنسى أَحكامه وشريعتُه.

وأولئك المُحَرِّفون الكافرون يَبوءون بإثمِ التَّحريفِ والتَّبْديل.

• تكفَّل الله بحفظ القرآن:

بينما أَوْكَلَ اللهُ للسَّابقينَ حِفْظَ كُتُبِه، لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، فقد تكَفَّلَ بذاتِه سبحانه - وهو القويُّ العَزيز - بحفْظِ القرآنِ الكريم، ولم يجعلْ هذا للمسلمين، ولم يطلُبْ ذلك منهم، ولم يستحفِظْهُمْ كتابَه.

وليس معنى عَدَمِ استِحْفاظِه المسلمينَ للقرآن عَدَمَ ثقةٍ فيهم، وخَشْيَةَ تضييعِهم للأمانة، كما فعلَ أَصحابُ الدّياناتِ السَّابقَة، فاللهُ يعلمُ أَنَّ هذه الأُمَّةَ هي أُمَّةُ حَمْلِ الأَمانَة، وتَحقيقِ الخلافَة، ونَشْرِ الدَّعوة، وأَنه جَعَلَها خيرَ الأُمَم، بما تقومُ به من مهمةٍ عظيمةٍ للقُرآن والإسلام: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إِنَّ تولِّي الله حفْـظ القرآنِ، مظهرٌ من مظاهرِ تكريمِه سُـبحانَه لهذه الأُمَّة، وتفضيلِه لها، بحيث تَكَفَّلَ بذاتِه حِفْظَ كتابِها.

وهو مظهرٌ من مظاهرِ فَضْلِ القرآنِ على سـائرِ كُتبِ اللهِ السَّـابقة، باعتباره الكتابَ الأَخيرَ للبشرية، الباقي والمستمرَّ حتى قيامِ السَّاعة، فلا يَأْتي بعدَه ما يَنْسَخُه.

• هذا الوعد في القرآن والحديث:

إِذًا: تكفَّلَ اللهُ بحفْظِ القرآن، وجاءَ هذا في صورَةِ وَعْدٍ قاطعٍ من الله، واللهُ مُنجِزٌ وَعْدَهُ، وهو لا يُخلفُ الميعاد؛ قالَ تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقد رَبطت الآيَةُ بين حقيقَتَيْن متلازمتين:

الأولـى: أَنَّ هذا الذِّكْرَ هـو كَلامُ الله، وأَنَّ اللهَ هو الـذي أَنزلَه على محمدٍ ﷺ بوساطةِ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثانيةُ: أَنَّ اللهَ هو حافِظٌ للقرآن، يحفظُه من التَّحريفِ والتَّبديلِ والتَّغيير.

وقد أَخْبَرَنا اللهُ في حديثٍ قُدُسِـيٍّ صَحيح، بما يُؤَكِّدُ ما قَرَّرَتْهُ الآية: روى الإمامُ مسـلمٌ: عن عِياضِ بنِ حِمارِ المجاشِـعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «... **وقالَ اللهُ: إِنَّمَـا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِـيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ، تَقْرَؤُه نَائِمًا وَيَقْظَان**»[1].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم (٥١)، بابُ الصفاتِ التي يُعْرَفُ بها أَهْلُ الجَنَّةِ وأَهْلُ النَّار رقم (١٦)، حديث رقم (٢٨٦٥).

والشَّاهِدُ في الحديثِ: قولُه عن القرآن: إِنَّه **لا يغسلُه المَاءُ**؛ أي: لا يَقْدِرُ أَحَدٌ على تَحريفِه، ولا تبديلِه، فهو لا يُغْسَلُ، ولا يُمْحَى، ولا يَزولُ؛ لأَنَّ اللهَ تَكَفَّلَ بحفْظِه.

• الله يُلهم المسلمين وسائل حفظه:

تَكَفُّلُ اللهِ بحفْظِ القرآنِ أَمْرٌ غيبيّ، لا بُدَّ أَنْ يتمثَّلَ في صورَةٍ خارجيَّةٍ مادِّيَّة، تنتقلُ من مَجالِ المُسَبِّبات، إِلى مَجالِ الأَسبابِ البشريَّةِ الظَّاهرية.

ولذلك أَلْهَمَ اللهُ الرَّسولَ ﷺ والصَّحابَة ـ والمسلمين مِن بَعْدِهم ـ اعتمادَ وسائِلَ مادِّيَّة، وأَسبابٍ ظاهريَّة، تَحقَّقَ بها حفظُ القرآنِ من التَّحريفِ والتَّبديل:

١ ـ من هذه الوسائل: حِفْظُ الرسولِ ﷺ الآيات الَّتي كانَ يُلْقيها له جبريلُ عليه السلام، وإِنْ كانَ اللهُ هو الذي تَكَفَّلَ بتحفيظِ رسولهِ ﷺ، فكانَ حِفْظُه للقرآنِ حِفْظًا مُعْجِزًا؛ قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧].

٢ ـ ومن هذه الوسائل: أَنَّ اللهَ كان يرسلُ جبريلَ عليه السلام في كلِّ سَنَةٍ في رمضانَ إِلى رسولِ اللهِ ﷺ، يُدارسُه القرآنَ، ويَعْرِضُه عليه، ويَقْرَؤُه أَمامَ جبريل، وفي العامِ الأخيرِ من بِعثتهِ عليه الصَّلاة والسَّلام دارَسَه جبريلُ القرآنَ كُلَّه في رمضانَ مرَّتَيْن.

٣ ـ ومن هذه الوسائل: أَنَّ الرَّسولَ ﷺ حَفَّظَ الصَّحابَةَ القُرآنَ، وأَمَرهم بإحسانِ تلاوَتِه، وضَبْطِ حِفْظِه، وحَفِظَ صَحابَةٌ كثيرونَ كتابَ اللهِ حِفْظًا مُتْقَنًا.

٤ ـ ومن هذه الوسـائلِ: اتِّخاذُ الرَّسـولِ ﷺ كَتَبَةً منَ الصَّحابة، عُرِفوا باسـم «كَتَبَةِ الوَحْيِ» كانوا يكتبونَ الآياتِ والسُّـوَرَ التي يَنزلُ بها جبريلُ إلى رسـولِ الله ﷺ. من هؤلاء: الخلفـاءُ الأَربعة، وأُبَيُّ بنُ كعب، وزيدُ بنُ ثابت.

وقد كُتِـبَ القـرآنُ كلُّه في صُحُـف في حياةِ رسـولِ اللهِ ﷺ، فالرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّـلامُ كان حافِظًا ضابِطًا للقُرآن، وصحابَةٌ كَثيرونَ كانوا حافِظينَ ضَابِطينَ له، والقرآنُ كُلُّه مَكْتُوبٌ مَجموعٌ في الصُّحُف.

• **وسائل حفظه بعد رسول الله ﷺ:**

والْتحقَ الرَّسـولُ ﷺ بالرَّفيقِ الأَعْلى، والقُرآنُ مَحفوظٌ حِفْظًا دَقيقًا على هذه الصُّورةِ العاليةِ من الحفظِ والضَّبط.

ثم أَلْهَمَ اللهُ الصَّحابَةَ اعتمادَ وسائِلَ أُخْرى في توثيقِ القرآنِ وحِفْظِه، ازدادَ بها القرآنُ تَوثيقًا وحفظًا، وثباتًا ورُسوخًا.

فجمعوا القرآنَ الجمعَ الثَّاني فـي مصحفٍ واحِدٍ، في مكانٍ واحِدٍ، في خلافةِ الصِّدّيق، بمشورةٍ من عمرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه، وإقرارٍ من باقي الصَّحابة.

ثم جمعـوا القرآنَ الجمـعَ الثَّالثَ في «المُصحـفِ العثمانيِّ» زَمَنَ عثمانَ بنِ عَفّان، بمشـورَةٍ من حُذيفـةَ بنِ اليَمان، وإجمـاعٍ من باقي الصَّحابة.

وبعدَ عهدِ الصَّحابـةِ الكرام، الَّـذي تَوَفَّرَ فيه للقـرآنِ أَدَقُّ مظاهرِ

التَّدقيقِ والضَّبطِ والحِفظ، أَلْهَمَ اللهُ المسلمين في القرونِ المتتالية اتخاذَ وسائلَ أُخرى، ازدادَ بها القرآنُ حِفْظًا وتوثيقًا.

فاعْتَمَدوا إعْجامَ كلماتِ القرآن - وهو تَنقيطُ حُروفِ الكَلِمَة - واعْتَمدوا تَشكيلَ الكلماتِ شَكْلًا دَقيقًا شاملًا.

ثم حَصَروا القراءاتِ الصَّحيحةَ والقراءاتِ الشّاذَّة، ثمَّ وجَّهوا تلك القراءات، وبَيَّنُوا الفروقَ بينَها، ثم أَلَّفُوا الدّراساتِ العديدةَ حولَ رَسْمِ المُصحفِ العُثماني، وإجراءِ تَحسيناتٍ على طريقةِ كتابةِ المُصحف، وتَقسيمِه إلى أَجْزاءٍ وأَحْزابٍ وأَرْباع، وغيرِ ذلك.

وفي العصرِ الحديث، عندما تَقَدَّمَتْ وسائلُ وأَدواتُ العلومِ والاختراعات، استفادَ المسلمون منها، وَجَعلوها وسائلَ لمزيدٍ من توثيقِ وحفظِ القرآن، فسَجَّلوا القرآنَ كامِلًا على أَشرطةٍ وأَفْلام، لعَشَراتٍ من القُرّاءِ الحُفّاظِ المُتْقِنينَ المجوِّدين بأَصواتِهم المؤَثِّرَةِ الجميلةِ.

ووظَّفوا الحاسوب «الكمبيوتر» لحفْظِ القرآن، وتَخزينِ كلماتِه، وقراءاته، ومعانيه وتفاسيره.

• هذه الوسائل لم تتوفّر لأيِّ كتابٍ آخرَ:

إِنَّ الوسائلَ المادِّيَّة، والمظاهِرَ الخارجيَّة، والأسبابَ البشريَّة التي أَلهمَ اللهُ المسلمين اتِّخاذَها واعتمادَها، في حِفْظِهم الخارجيِّ البشريِّ للقرآن، لم تتوفَّرْ لأَيِّ كتابٍ منَ الكُتب السَّابِقَة، ولم تتوفَّرْ لأَيِّ وثيقَةٍ أَو نَصٍّ بشَرِيٍّ على مَدارِ تاريخ البشريَّة.

وبذلك تحقَّقَ عمليًا وَعْدُ اللهِ بحفظِ القرآن، وتكَفُّلُه بذلك، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

والمسلمُ منّا ومن الذين يأتونَ بعدَنا حتى قيامِ السَّاعة ـ لا يَتَدَسَّسُ إليه أيُّ شَكٍّ أو رَيْبٍ، في أَنَّ القرآنَ الذي يَقْرَؤُهُ الآنَ في المصحف، أَو يستمعُ له من قارئٍ مُجَوِّدٍ، هو نَفْسُ الكلامِ الذي أَنزلَه اللهُ على محمَّدٍ ﷺ، وأَنَّ هذه الكلماتِ والحروفَ والحركاتِ والمَدّاتِ والغُنَّات التي يَقْرَؤُها هي نفسُها التي كان يقرؤُها رسولُ اللهِ ﷺ وصحابَتُه الكرام.

• حِفْظُ أَلْفاظِ القُرآن وكَلِمَاته:

وعندما نُمْعِنُ النَّظَرَ في وَعْدِ اللهِ بحفْظِ القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فإننا نرى مظهرَيْن من مظاهرِ حِفْظِ اللهِ للقرآن:

المظهرُ الأَولُ: حِفْظُ اللهِ لسُوَرِ القرآنِ وآياتِه، ولكلماتِه وحروفِه فلا تمتدُّ إليها يَدٌ بالتَّحريفِ والتَّبديلِ والتَّغيير.

وهذا المظهرُ هو المتبادِرُ للذّهن والذي يدركُه معظمُ المتكلِّمين عن حِفْظِ اللهِ للقرآن.

كم حاوَلَ الأَعداءُ تحريفَ القرآن، ولو كلمةً من كلماتِه، أو آيةً من آياتِه، ومع ذلك باءَتْ مُحاوَلاتُهم بالفَشَل، وانتهتْ مؤامراتُهم إلى الكَشْف.

يَطبعُ الأعداءُ من اليهودِ والصَّليبيين نُسخًا أَنيقةً من القُرآن،

وَينشرونَها في البلادِ الإسلاميةِ، الآسيويةِ والإفريقية، ولكنَّهم يُسْقِطون منها كَلِمَةً، تُغَيِّرُ المَعْنى تَغْييرًا كبيرًا، ويُحَرِّفونَ بها الحَقائق.

ومع ذلك لا تمرُّ هذه المؤامرةُ على المسلمين، بلْ يكتشفُ القُرّاءُ والعلماءُ وحَمَلَةُ القرآن، هذا التَّحريفَ، ويُحَذّرونَ المسلمين منه، ويَجمعونَ هذه النُّسَخَ، ويَحرقونَها أو يُتْلفونَها.

ففي هذا العصرِ قامَ الأَعداءُ بطبْعِ آلافِ المصاحف، ولم يَحْذِفوا منها إلاّ كلمةً واحدة، وهي في قولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فقامُوا بحَذْفِ كلمةِ «غيْر»، وبهذا: أَلْغوا الإسْلامَ كُلَّه، وصارَت الجملَةُ المُحَرَّفَةُ هكذا: ومَنْ يَبْتَغِ الإسلامَ دينًا فلن يُقْبَلَ منه!.

لكنَّ حُفّاظَ القرآنِ اكتشَفوا المؤامرة، ولاحَظوا الكلمةَ المَحْذوفة وصادَروا تلك النُّسخَ من المصاحف.

وهذا مِصْداقُ قولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

• حفظ مهمته ورسالته:

المظهرُ الثاني: حِفظُ اللهِ لمعاني القُرآن بعد حِفْظِه لأَلفاظِه، وهذا المظهرُ قد لا يَلْتَفِتُ إليه ولا يَلْحَظُه بعضُ المسلمين.

ونَرى أَنَّ مُلاحَظَةَ هذا ضروريّة؛ لأَنَّ حِفْظَ اللهِ لحروفِ وكلماتِ وأَلْفاظِ القرآن، أَصْبحَتْ بدهِيَّة، لكن لا بُدَّ أَنْ يُشيرَ العلماءُ المُحَقِّقون إِلى حِفْظِ اللهِ لمعاني القرآن.

إنَّ الأعـداءَ ـ وبخاصَّةٍ في هذا الزمان ـ قد أَيْقَنـوا وأقرُّوا بعَجْزِهم عن تَحريفِ أَلْفاظِ القرآن؛ لأَنَّ اللهَ يحفَظُها، فوجَّهوا كَيْدَهم ومؤامراتِهم إلـى جانِبٍ آخرَ، وهـو معاني القرآن، بهـدفِ تَحريفِهـا وتفريغِها من روحِها، بحيث تبقى أَلْفاظُ القرآنِ دونَ مَعانٍ حَيَّةٍ.

للقرآنِ مهمَّةٌ عمليةٌ حَركيّـة، يُؤَدّيها في حياةِ المسـلمين، وله بُعْدٌ تَربويٌّ مُؤَثِّر، وله مَضامينُ جهادِيَّةٌ في مواجهـةِ الأَعداء، وآياتُ القرآنِ وعباراتُه تُقَرِّرُ هذه المهمّةَ والطّبيعةَ القرآنية، ومعاني القرآنِ تُرَسِّخُ هذه المهمَّة.

ولقد أَدّى القرآنُ مهمَّتَه التَّربويةَ والحركيةَ والجهادية، حيثُ تَخَرَّجوا من خِلالِه، وتفاعَلوا معه، وَتَحرَّكوا به، وعاشوا في ظلالِه، فكانوا «جيلًا قُرآنيًّا فَريدًا»، ونَشَروا الإسلامَ في بقاعِ الأَرْض.

ولما ابْتَعَدَ المسـلمونَ في الأجيالِ اللَّاحقةِ عـن هَدْيِ القُرآن، ولم يُحَقِّقوا فيهم مُهِمَّةَ القرآن، ضَعُفوا وذَلّوا، وتحكَّمَ فيهم الكفار.

• حرص الأعداء على إفشال مهمة القرآن:

ويَخشـى هؤلاءِ الكُفـارُ وأَعوانُهم مـن المنافقيـن والظَّالمين، أَنْ يَسـتيقظَ الإِيمانُ في نُفوسِ المسـلمين، وأَنْ يَعودوا إلـى القرآن، وَأنْ يَتربَّوْا عليه، ويَتحرَّكوا من خِلاله.

لذلك حَرَصوا على طَمْسِ مهمَّةِ القرآنِ العمليةِ في عُقولِ المُسلمين، وتَضييعِ طبيعتِـه الحيَّةِ في حياتِهـم، كما حَرَصُوا علـى تَحْريفِ معانيه ودلالاتِه، وإِخفاءِ حقائِقِه ومُقَرَّراتِه، وتَعميةِ القُلوبِ عن بَصائِرِه وموجباتِه.

فَصاروا يَتَلاعَبونَ في تفسـيرِه وتأويلِه، ويُحَرِّفـونَ معانيه وحقائِقَه، ويُقَدِّمونَ للمسلمينَ كَلامًا مَسْحومًا، يزعمونَ: أَنَّ هذا هو ما يُقَرِّرُه القرآن وما يتضَمَّنُه ويوحي به.

فَمِنْ قائل: إِنَّ القرآنَ يرسِّـخُ مفهومَ القوميّة! ومِـنْ قائِلٍ: إِنَّ القرآنَ يُقَرِّرُ إِيمانَ اليهودِ والنَّصارى، ولو لم يَدْخُلوا في الإِسـلام! ومن قائِلٍ: إِنَّ القرآنَ لا يوجِبُ الجهادَ إِلَّا دفاعًا عـن النَّفس! ومن قائِلٍ: إِنَّ القرآنَ لا يُحَرِّمُ الرِّبا ولا التَّبـرُّجَ والاختلاط! ومِنْ قائـلٍ: إِنَّ القرآنَ ليس فيه سياسةٌ ولا اقتصادٌ ولا يتكَلَّمُ عن الدَّولةِ أَو الخلافة!.. إلى غيرِ ذلك.

وهذه صُـوَرٌ صَارخةٌ من صورِ تَحريفِ الأَعـداءِ وأَعوانِهم في بلادِ المسلمين لمعاني ودلالات وحقائقِ وموضوعات القرآن.

وهنا نتذكَّرُ المظهرَ الثَّاني من مظاهـرِ حفظِ اللهِ للقرآن، حيثُ يُوَفِّقُ علماءَ ومفكِّريـن، ومُصلحين ومُفسِّـرين، للوقوفِ أَمامَ هـذه الهجمةِ الشَّرسةِ في تحريفِ معاني القرآن.

ينطلقُ هؤلاء العلمـاءُ الرُّوادُ من القـرآن، ويتحرَّكون به، ويَدورون معه، ويُبَيِّنونَ زَيْـفَ وخداعَ الأَعـداء، ويَنقضونَ كلامَهـم، ويُصوِّبونَ للمُسلمينَ ما قد يعلَقُ في أَذهانهم من أَخطاء.

يَحرِصُ هؤلاء العلماءُ الرّوادُ علـى بَيانِ المعاني الصَّحيحةِ للقرآن، وعلى حُسْنِ تَقْديمِ موضوعاتِه، وبيانِ أَغراضِه وأَهدافِه ومقاصِدِه، وتَقريرِ طبيعَتِه، والتذكيرِ بمهمَّتِه، وتَحصينِ المسلمين به.

واللهُ الحكيمُ هو الَّذي ينتـدبُ هؤلاء العلماءَ الـرُّوّادَ، للقيام بهذا

الواجِبِ الجهادِيِّ العَظيمِ، تَنفيذًا لوعْدِه سُـبحانه بحفْظِ معانِي ومقاصدِ وحقائقِ القُرآن، كما حفِظَ أَلْفاظَ وكلماتِ وحروفَ القرآن.

والحمدُ لله الذي مَنَّ علينا بأَنِ انْتَدَبَنا لهذا، وسَـخَّرنا لهذا، وأَلْهَمَنا أَنْ نُقْبِلَ على القـرآن، وأَنْ نُقَدِّمَ للمُسـلمين بعضَ كُنـوزِه، وَأنْ نُفَنِّدَ وننقض بعضَ تحريفاتِ الأَعداءِ لمعانيه وحقائقه.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].



خامسًا

لَطَائف من أوَّل وآخر ما نزلَ من القُرآن



• الرَّاجح في أوَّل ما نزل:

الراجحُ عند علماءِ القُرآنِ: أَنَّ أَوَّلَ ما نَزَلَ هوَ مطالعُ السُّـورِ التَّالية: العلق، القلم، المزمل، المدثر.

وكان نزولُها على هذا الترتيب:

فنزلَ أَوَّلًا: مطلعُ سُورةِ العلق؛ وهو قولُه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

ثم نزلَ بعد ذلك: مطلعُ سـورةِ القَلم؛ وهو قولُه تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤].

ثم نزلَ بعد ذلك: مطلعُ سورة المزمِّل؛ وهو قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلۡقِى عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٦].

ثم نزلَ بعد ذلك مطلعُ سـورةِ المدثر؛ وهو قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ

﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

• لطائف في أول ما نزل:

إِنَّ اللهَ حَكيمٌ، وقد نزَّلَ القرآنَ مُفرَّقًا، مُنَجَّمًا حَسْبَ الحوادِثِ، وِفْقَ حِكْمَتِه. وعندما نَنْظُرُ في ترتيبِ مطالِعِ هذه السُّورِ الأربع، على أَساس زمانِ نزولها، فإننا سنستخرجُ منها بعضَ اللطَائف:

١ ـ الأمر بالقراءة في سُورة العلق:

كانت أوَّل الآياتِ نزولًا تَأْمُرُ بالقِراءَة، وأَنْ تكونَ القراءَةُ باسـمِ اللهِ، وهذا له دلالتُه على أَهمية القِـرَاءَةِ والعلْمِ والتَّعَلُّمِ في هذا الدِّين، الَّذي يَقومُ على العلمِ والفهمِ والوعْيِ والمعرفة.

وحتى في العمليةِ التَّربويةِ، فإنَّنا نـرى: أَنَّ القراءَةَ والحفظ، وتَرديدَ المقروءِ المحفوظِ أَمامَ المعلِّم الذي يقومُ بإقراءِ وتحفيظِ الطُّلاب، هي الخطوةُ الأولـى فيها؛ لأَنَّ الطالـبَ في هذه المرحلةِ لا يُحسـنُ كتابَة الحُروفِ والكلمات، لكنه يُحسنُ ترديد الكلمات مع أُستاذِه ومُعَلِّمه.

٢ ـ ثم الأمرُ بالكِتابة في سُورة القلم:

نزل بعد ذلك مطلع سُورةِ القَلَمِ، وموضوعُه هو المرحلةُ الثَّانية من العمليةِ التَّعليمية، وهي الكتابةُ، التي تُبْنَى على القراءَة.

وقد ذَكرت الآياتُ في مطلعِ سُـورةِ القَلَمِ ثَلاثَـةَ عناصر في عمليةِ الكتابَة، وهي:

ـ المكتوبُ: ويمثِّله: حَرْفُ ﴿نٓ﴾.
ـ والمكتوبُ به: ويمثِّلُه: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾.
ـ والمكتوبُ عليه: ويمثِّلُه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ولم يذكر العنصرَ الرابعَ من عناصِرِ الكتابَة، وهو: الكاتب؛ لأنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ، فليس له كاتِبٌ ولا مؤلِّفٌ.

وبنزولِ مَطْلَعي سورَتَي العلقِ والقلمِ تكونُ العمليةُ التَّربويةُ التعليميةُ قد ذُكِرَتْ بمرحلتَيْها: مرحلة القراءَةِ كما في سُورةِ العلق، ومرحلة الكِتَابة كما في سُورة القلم.

وهذه البدايةُ التَّعليميةُ في أَوَّلِ ما نَزَلَ، وتُشيرُ إلى طبيعةِ القرآنِ والإسلام، واعتماده على العلم والمعرفة، والدِّراسةِ والتَّحصيل.

٣ ـ ثم الإعداد العِبَادي في سُورة المزَّمِّل:

بعد الإعدادِ العلميِّ لِحَمْلِ الرِّسالةِ بالقراءَةِ والكتابة، يَأْتي مطلعُ سورةِ المزَّمِّل، ليتَّجهَ إلى إعدادٍ آخرَ، لفَهْمِ الإسلام، والالتزامِ به، وحملِه؛ إنه الإعدادُ العِبادِيُّ، عن طريقِ قيامِ اللَّيل؛ حيثُ يخاطِبُ اللهُ رسولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمِّلُ بثيابِكَ، والمُتغَطِّي بها.

ويَأْمُرُ اللهُ رسولَه بقيامِ الليل، وترتيلِ القرآنِ فيه، ومناجاةِ اللهِ أَثْناءَه واستمدادِ القوةِ منه.

وتُبيِّنُ الآياتُ: حكمةَ الأَمْرِ بقيامِ اللَّيلِ، وترتيلِ القرآن، إنَّها تَهيئةٌ وإِعْدادٌ لحَمْلِ الأَمانة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ والمرادُ بالقولِ الثقيل هنا: القرآن.

٤ ـ ثم الأمر بتبليغ الدَّعوة في سُورة المدَّثِّر:

وبعد هذا الإعدادِ العلميِّ عن طَريقِ القراءَةِ والكِتَابَة والإعدادِ العبادِيِّ عن طريقِ قيامِ اللَّيل وقراءَةِ القرآن، يأتي الأَمْرُ بحملِ الدَّعوة وتبليغِها، في السُّورةِ الرَّابعة ـ حسبَ ترتيبِ النُّزول ـ وهي سورَةُ المُدَّثِّر.

حيث يُخاطبُ اللهُ رسولَه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي: المتَدثِّرُ المُتَغَطِّي بثيابه.. ويَأْمُرُه بالقيامِ بالإِنْذار، وتَبليغِ الدَّعوةِ للنَّاس.

ويَأْتي الأَمْرُ بالقِيامِ والإنذارِ والتَّبليغِ في موضعِه، ثَمَرَةً لما سَبَقَه من تهيئَةٍ وتربيةٍ وإعدادٍ.

وسُبحانَ اللهِ الحكيم، مُنَزِّلِ القرآنِ الكريم، حَسْبَ حكمَتِه الباهرة.

٥ ـ لفتة تربويَّة دعويَّة:

هذا التَّرتيبُ الحكيمُ لِمطالِعِ أَوَّلَ أَربعِ سُوَرٍ في النُّزول يُقَدِّمُ للدُّعاةِ لفتةً تربويَّةً دَعويَّة.

فلا بُدَّ أَنْ يَسبقَ حَمْلَهم للدَّعوة، وقِيامَهم بالإِنذارِ والتَّبليغ، إعدادٌ علميٌّ، عن طريقِ العِلْمِ والفَهْمِ، والمعرفةِ والثَّقافة، وإعْدادٌ عِبادِيٌّ عن طريقِ النَّوافِلِ وقيامِ اللَّيل، وتلاوةِ القرآن، لربطِ القلوبِ بالله، وتهيئتِها لحَمْلِ القَولِ الثَّقيل، والعِبْءِ الكَبيرِ؛ فقِيامُ الليل يَسْبِقُ القِيامَ بالإِنذار.

• بين أَوَّل ما نزل وآخر ما نَزل:

الرَّاجِحُ: أَنَّ أَوَّلَ ما نَزَلَ هو مطلَعُ سُورَةِ العَلق، كما سبَق أَنْ قُلْنا.

والراجحُ: أَنَّ آخِرَ ما نَزَلَ علـى الإطلاقِ هو قولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ولَم يَعِشْ رسولُ الله ﷺ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ إلّا أيامًا، ثم انتقلَ إلى الرَّفيقِ الأَعلى.

وعندما ننظرُ إلى موضـوعِ أَوّلِ ما نزل، وآخِرِ ما نَزَل، فإنَّنا نجدُهما يَتحدَّثان عن موضوعٍ واحدٍ، وهو العقيدة.

فمطلعُ سُـورةِ العَلَق يتحدَّثُ عـن العقيدة، حيـثُ يخبرُنا عن اللهِ الخَالق، وما سِـواهُ مخلوقٌ، ولقد بَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ من عَلَقةٍ، ثم جعله بعد ذلك مُضْغَةً.

كما أَخْبَرَنا عن اللهِ الأكرم، الذي هو بكلِّ شـيءٍ عليـم، وأَنه عَلَّمَ الإنسـانَ ما لم يَعْلَم، ولذلك لا بُدَّ أَنْ يتعلَّمَ الإنسانُ عن طريقِ القِراءَة؛ حيثُ يقرأُ باسـمِ رَبِّه الأكرم، ويتعلَّمُ عن طريـقِ الكتابة؛ لأَنَّ اللهَ عَلَّمَه الكتابة بالقلم.

ونهايةُ القرآنِ نُزولًا يتحدَّثُ عن العقيدة، حيثُ تأْمُر الآيةُ المؤمنين بتَقوى الله، وتُذَكِّرُهم بيومِ القيامة، وتُقَرِّرُ رُجوعَهم يومَ القيامَةِ إلى الله، وحسابَ اللهِ لهم على أَعمالِهم، ذلك الحسابُ القائمُ على العَدْل، حيث لا يَظلِمُهم الله، وإنما يحاسِبُهم على ما كَسَبوا.

• لطائف بين أوَّلِ وآخِرِ ما نزل:

عندما نُمعنُ النَّظرَ فـي أَوَّلِ وآخِرِ ما نَزَلَ من القـرآن، ونحاولُ أَنْ نربطَ بينَهما بتناسُقٍ، فإنَّنا سَنَرى من ذلك بعضَ اللَّطائِفِ، منها:

١ ـ يتحدّث أوَّلُ ما نَزَلَ عن العقيدَة، ويتحدَّثُ آخِرُ ما نَزَلَ عن العقيدة، وبينهما فترةٌ زمنيَّة طويلة، تُقَدَّرُ بثلاثةٍ وعِشرين عامًا.

واتحادُهما في الموضوعِ الإيمانيِّ العَقَدِيّ، يدلّ على أهميةِ العقيدةِ في هذا الدين، فكانَ بَدْءُ القرآنِ بالعقيدة، وكان خَتْمُ القرآنِ بالعقيدة، وبين طَرَفي البَدْءِ والخَتْمِ جاءَتْ تَشريعاتُ وتوجيهاتُ وَأَحكامُ القرآن، فكانتْ معرُوضَةً ضمن هذا الإطارِ العَقَدِيِّ.

إِنَّ العقيدَة في الإسلام ليستْ معلوماتٍ ثَقَافيَّة، تُدْرَسُ دِراسَةً نظريَّة، وليستْ مادَّةً مُعيَّنَةً، يدرسُها المسلم، ثم يَطْويها، وَينتقلُ عنها إلى غيرِها.. إنما هي حالةٌ إيمانيةٌ يَعيشُها المُسلم، وهي تذكيرٌ متواصلٌ، يتذكَّرُها المسلمُ وهو يتلقّى عن القرآن الأحكامَ والتشريعاتِ والتَّوجيهات.

٢ ـ يتحدَّثُ أَولُ ما نزلَ من القرآن عن خَلْقِ الإنسانِ من عَلَق، أَي: يَتناوَلُ المرحلةَ الأُولى من تكوينِ الإنسان، وهي تخليقُه في بَطْنِ أُمِّه. ويتحدَّثُ آخِرُ ما نَزَلَ من القرآنِ عن المرحلَةِ الأخيرةِ من حياةِ الإنسان على وَجْهِ الأَرض، التي تَنتهي بالموت، ثم رجوعه بعدَ ذلك إلى اللهِ.

وبينَ مرحلَةِ الولادَةِ في البَدء، ومرحلةِ الموتِ في الخِتام، تَنزلَتْ آياتُ القرآنِ خلالَ ثلاثَةٍ وعشرينَ عامًا، وعَرَضَتْ مراحِلَ حياةِ الإنسانِ على وَجْهِ الأرض، ونَظَّمَتْ له حياتَه بما قَدَّمَته له من أَحكامٍ وتَشريعاتٍ وتوجيهات.

٣ ـ أَنزلَ اللهُ القرآنَ لتنظيمِ حياةِ المسلمِ على هذه الأَرض، وتَنظيمِ حياةِ الأُمَّةِ في كافَّةِ مجالاتِها.

فبدَأتِ الآياتُ الأُولى مع الإنسان منذُ وِلادَتِه، وتتابَعت الآياتُ في عَرْضِ وتنظيمِ حَياتِه التي يَقطعُها في رحلتِه على الأَرض.

وخُتِمَ نزولُ القرآنِ بختامِ حياةِ الإنسـان على الأَرض، وجاءَت الآيةُ الأَخيرَةُ في النُّزول، تَضَعُ قَدَمَيْه على أَوَّلِ مرحلةٍ من مراحِلِ حياتِه الآخرة.

وفي هذا دلالةٌ: أَنَّ الإنسـانَ لا يَسـتطيعُ أَنْ يعيشَ حياتَه في الدنيا لوحده، ولا يُمكنُ أَنْ يقطَعَ مراحِلَها بمفردِهِ، وإِنْ حاوَلَ ذلك فسيضيعُ ويَضِلُّ.

ولهذا: مَنَّ اللهُ عليه، فأَنزلَ له المنهاجَ الـذي يقطعُ به رِحْلَةَ حياتِه، والذي يُعينُه على أَنْ يَعيشَ حياتَه بعِزَّةٍ وكرامَةٍ وإنسانيةٍ.

***



سادسًا

القُرآن قولٌ ثَقيلٌ



وَصَفَ اللهُ القرآنَ بأَنه قولٌ ثقيلٌ، وجاءَ هذا الوصفُ في سِياقِ بيانِ حكمةِ أَمْرِ اللهِ لرسولِه ﷺ بقيامِ الليل، وترتيلِ القرآن.

قال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۞ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۞ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۞ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٨].

القرآنُ قولٌ ثقيلٌ، ولذلك لا بُدَّ أَنْ يستعدَّ الرَّسـولُ ﷺ له استعدادًا خاصًّا، ويتهيَّأَ لحملِـه تهيئةً خاصَّة، ولهذا أُمِرَ أَنْ يَقـومَ الليلَ، وأَنْ يُرَتِّلَ القُرآن.

• بينَ ثِقَلِ القُرآنِ وتَيسيرِه للذِّكْر:

وَصْفُ القـرآنِ بأَنه قولٌ ثقيل، وَصْـفُ مَدْحٍ واستِحسـانٍ. والثِّقَلُ المتمثِّلُ بالقُرآن، ليس كما يَفْهَمُه بعضُ النَّاس، فهم قد يَفهمونَ: أَنَّ ثِقَلَ القُرآنِ مَعْناهُ صُعوبَةُ فَهْمِه، ومَشَـقَّةُ تَدَبُّرِه، واستِحالَةُ الالتزامِ به وتطبيقِ أَحكامه، فهو ثقيلٌ فوقَ مُسـتوى الطَّاقةِ والقُدرةِ البشرية، ولهذا يَتَفَلَّتون

منـــه، ويَهْرُبونَ من تطبيـــقِ أَحكامِهِ الثَّقيلة، وبعضُهـــم يَكْتَفي أَنْ تكونَ صِلَتُه بالقـــرآنِ مجرَّدَ تلاوةٍ لتحصيلِ الأَجْر، أَمّـــا الالتزامُ والتَّطبيقُ فهو عاجزٌ عنه لِثِقَلِ القرآن.

وهذا فهمٌ خاطئٌ مَغْلوطٌ، فأَحكامُ القرآنِ سهلَةٌ مَيْسورَةٌ، وقد أَخْبَرَنا اللهُ أَنه ما كلَّفَنا بما فيه حَرَجٌ أَو اســتِحَالة؛ فقالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقالَ تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقـــالَ تعالـــى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

١ ـ معنى تيسير القرآن للذّكر:

وهذا القرآنُ مُيَسَّرٌ للذكْر؛ قالَ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وذُكِرَتْ هذه الآيَةُ في سورَةِ القمرِ أَرْبَعَ مَرّاتٍ، حيثُ جاءَتْ في كُلِّ مَرَّةٍ خاتمةً وتَعقيبًا على لَقْطَةٍ من مصارعِ الكُفارِ السّابقين.

يَسَّرَ اللهُ القُرآنَ للذِّكْر، وجعلَ تِلاوتَه سَهلةً ميسورَةً، ومحبوبَةً مرغوبةً مطلوبة.

فالمؤمنُ يَتْلو القـــرآنَ بتفاعُلٍ وتَأَثُّرٍ وشَـــغَفٍ، ولا يَمَلُّ تلاوتَه، بل يتمنّى أَنْ لا يقطعَهـــا أَو يتوقَّفَ عنها. وما أَنْ يَختـــمَ القرآن، حتى يبدأَ تِلاوتَه من جديـــدٍ، بتأَثُّرٍ وتَفاعُـــلٍ، وهكذا على مَدارِ الأَيّامِ والشُّـــهورِ والأَعوام.

وهل هناك كتابٌ يَتْلوهُ الإنســانُ ويقرؤُه في كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، ويَعودُ له في كُلِّ مَرَّةٍ بتَفاعُلٍ وتَأثُّرٍ جَديدٍ، غيرُ القرآنِ الكريم؟!.

إنَّ قارئ القرآنِ لا يَمَلُّ قِراءَتَه؛ لأَنه مُيَسَّرٌ للتِّلاوةِ والذِّكْرِ والاسْتِماع. لكن أَينَ الذينَ يتذكَّرونَ ويَعرفونَ هذه الطَّبيعةَ السَّهلةَ الميسورة للقرآن؟ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟.

ومعنى ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ في الآية: مُتَذَكِّر.

أَيْ: أَينَ مَنْ يتذكَّرُ ويَعرفُ هذه المعاني، فيُقبل على القرآن، ويُدرك هذا التيسيرَ الملحوظَ فيه؟.

إذًا لا تَعارُضَ بين ثِقَـلِ القُرآن، وبينَ تَيْسـيرِه للذِّكرِ ، وتَسـهيلِه للتَّطبيـق؛ فما أَنزلَ اللهُ القـرآنَ إلّا للتِّـلاوةِ والذِّكْر، والفهـمِ والتَّدبُّر، والالتزامِ والعملِ والتَّطبيق.

٢ ـ معنى ثِقَلِ القرآن:

القرآنُ مُيَسَّـرٌ للتِّلاوةِ والذِّكْر، سَهْلُ العملِ والتَّطبيق، وليس في هذا مشقَّةٌ ولا عُسْرٌ ولا استحالة.

فما هو معنى ثِقْلِ القرآنِ إذًا؟.

ثِقَلُ القرآنِ ثِقَلٌ معنويّ، ثِقلٌ في طَبيعتِه، وفي مهمَّتِه ورســالَتِه، وفي جهادِه ومواجهتِه، وفي تشريعاتِه وأَحكامه، وفي أَثَرِه ونتيجَتِه، ويَسْري هذا الثِّقَلُ منَ القرآنِ إلى المؤمـنِ الذي يحملُه، والأُمَّةِ التي تنطلقُ به، وتَعيشُ في ظلالِه.

إنــه الثِّقَلُ في كُلِّ ذلــك، ويَعني: الجَدِّيَّةَ والمنهجيَّــة والموضوعية والعلمية، وليس السَّطحية أو الهامشيَّةَ أَو التَّفاهة.

إنه الثِّقَلُ في كُلِّ ذلك، ويعني: الصحةَ والصَّواب، والحَقَّ والهدى، وليس الباطلَ أَو الخطأَ أَو الضَّلال.

إنه الثِّقَلُ في كُلِّ ذلــك، ويعني: ثِقَلَ الاهتماماتِ الجادَّة، والمقاصِدِ الهامَّة، والمطالبِ العالِيَة، والمهمَّةِ الحَيَّة.

وبينما نلحظُ الثِّقَلَ والجديَّة والصَّوابَ في القرآنِ وما يتعلَّقُ به، فإنَّنا نرى نَقيضَ ذلك وعكسَه في ما ناقَضَ القرآنَ وخالَفَه.

فالأَفكارُ والآراءُ والمناهجُ الجاهليةُ المخالفةُ للقرآن، خاليةٌ من هذا الثِّقَــلِ الموضوعي، متصفَــةٌ بالخِفَّــةِ والسَّــطْحيَّة، والتَّفاهَةِ والهُزال.

• مظاهر الثِّقَلِ في هذا القرآن:

القرآنُ قولٌ ثقيلٌ، كما أَخبرَ الله، ومن مَظاهِرِ الثِّقَلِ في هذا القرآن:

١ - إِنّه ثقيلٌ في كلماتِه وعباراتِه:

فهي عِباراتٌ رصينَةٌ هادِفَة، غنيَّــةٌ بالمعاني والدَّلالات، ومهما نَظَرَ فيها ناظرون، وتَدَبَّرَها مُتَدبِّرون، وفَسَّــرَها مُفَسِّرون، على مَدارِ القُرون، فإنهم لن يَأْتوا على مَعانيها ودلالاتِها ودروسِــها، بل يَبقى منها أَشــياءٌ لمن يَأْتونَ بعدَهم، ولذلك لا يَشبعُ منها العُلَماءُ.

٢ - إِنّه ثَقيلٌ في مَعانيه ودلالاتِه، ودُروسِه وعِبَرِه، وأَحكامِه وتَشريعاتِه، وعُلومِه ومَعارفه:

فهي صادِقَةٌ لا كَذِبَ فيها، وهي صوابٌ لا خَطَأَ فيها، وهي أَصيلَةٌ تُؤَصِّلُ لموضوعِها، وهي جادَّةٌ غيرُ هازِلَةٍ.

٣ - إِنَّهُ ثَقيلٌ في مهمَّتِه ورسالتِه، وأَهدافِه ومَقاصِدِه:

فهو يُريدُ هِدايةَ النَّاسِ إِلى الله، ويُريدُ صياغَةَ الشَّخصيةِ الإِنسانيةِ صياغَةً قُرآنية، وإِيجادَ المجتمعِ الإِسلاميِّ القُرآني، ومواجهةَ أَعْداءِ الله، وهذه مهمَّةٌ عمليةٌ حركيَّة، وتربويَّةٌ توجيهيَّة، وهي جادَّةٌ ثَقيلَة.

٤ - إِنّه ثقيلٌ في أَثَرِه في حياةِ البشريَّة، على المستوى الفرديِّ والجَماعي:

فما أَنْ يُقْبِلَ عليه المؤمنُ بصِدْقٍ وَعزيمةٍ، ويَتعامَلَ معه بهِمَّةٍ وإِرادَةٍ، حتَّى يتغلغلَ هذا القرآنُ في كيانِه كُلِّه، فيسكنَ قلْبَه، ويُعيدَ ترتيبه وتوجيهَه، وينطلقُ من القلبِ لباقي جوانبِ الكيان، فيوجِّهُها الوجهةَ القاصِدَة، ويجعلُ لهذا المؤمنِ مُهِمَّةً ورسالة، وهَدَفًا وغايَة، هي نفسُ مُهِمَّةِ القرآنِ ورسالتِه.

فالقرآنُ ثَقيلٌ جادٌّ في تربيتِه وتوجيهه، وصياغتِه وتكوينِه، وهو يُخَرِّج نماذج إيمانيَّةً قرآنيَّةً عالِيَةً رَفيعةً، وما ذلك إِلَّا لِثقَلِه وجِدِّيَّتِه في ذلك الإِخراج.

كذلك هو ثقيلٌ في أَثَرِه في حياةِ الأُمَّة، بِشرطِ أَنْ تُسْلِمَ هذه الأُمَّةُ قِيادَها له، وتَصْدُقَ في حَمْلِها له، وتُخْلِصَ في تَعامُلِها معه.

هو ثَقيلٌ في تشريعاتِه لهذه الأُمَّة، وفي تقريرِ مناهِجِها ونُظُمِها، وفي توصيلِ هذه الأُمة إِلى مركز القيادَة والتَّأثيرِ بين الأُمَم.

٥ - إنّه ثَقيلٌ في مواجَهَتِـه لأَعداءِ الأُمّة، والوقـوفِ أمامَهم، والتَّصدّي لمكائِدِهم ومؤامراتِهم، وجِهادِهم وحربِهم:

وهو في كُلِّ ذلك جادٌّ جِدِّيَّةً ملحوظَةً، يُجاهِدُ جِهادًا كبيرًا، ويَتَحدّى تَحَدِّيًا واضحًا، وَينتصرُ في هذه المواجهةِ انتصارًا مُبينًا.

٦ - إِنَّه ثقيلٌ في استِقْرارِه وثباتِه في الوُجودِ والحياةِ والتّاريخ:

فهو أَصيلٌ راسِـخٌ، وما يَزيدُه مُرورُ الأيامِ والسَّـنواتِ والقرونِ إلّا رُسُوخًا، وما تَزيدُه حَرْبُ الأَعْداءِ له إلّا عُمْقًا وثَباتًا.

كم حاربَ الأَعداءُ هذا القرآنَ في القَديمِ والحَديث! وكم بَذلوا من جُهودٍ في طَمْـسِ أَنوارِه! وكم حاولوا إزالَتَـه والقَضاءَ عليه! ومع ذلك فَشِلُوا فَشَلًا واضحًا، وخَسِروا خُسْرانًا مبينًا.

صَحيحٌ أَنهم نَجحوا فـي إِبْعادِ بعضِ أَبناءِ المسـلمينَ عن القُرآن، وفي الاستحواذِ عليهم، بسببِ ابتعادِ هؤلاءِ عن القرآن، وهم الخاسِرون.

أَمّا القرآنُ فلم يَتَمَكَّنوا منه، ولم يَضُرّوهُ شيئًا.

وفِعْلُهم في ذلك كَمَنْ يَهُزُّ شـجرةً قَوِيَّة؛ أَصْلُهـا ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء، يُريدُ أَنْ يقتلِعَها، فيعجزُ عن ذلك، لكنَّه في هَزِّهِ لها، يَنجَحُ في إِسْـقاطِ أَوراقِها الصَّفْراءِ العالِقَـةِ بها، وهذا تطهيرٌ لها؛ لأَنَّها سـرعان ما تُورِقُ أَوْراقًا جَديدةً، عِوَضًا عن أَوراقِها المتساقِطَة!.

وقد أَخْبَرَنا اللهُ بهذه الحقيقةِ الرّاسخةِ الثّابتةِ للقُرآن، التي تُقَرِّرُ ثَباتَه ورسُوخَه، وتعمُّقَه وثِقَلَه، واستعلاءَه على الاجْتِثاثِ أَو الاقْتِلاع.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

وأَخْبَرَنا اللهُ بفشَلِ الكُفَّارِ في محاربةِ القرآن، ومحاولةِ إزالَتِه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦ ـ ٣٧].

فالقرآنُ ثقيلٌ في هذه الأُمَّة، راسِخٌ في حياتِها، مُتعمِّقٌ في كيانِها، مُتغلغِلٌ في جوانبها، ومستمرٌّ دائمٌ في مستقبلِها.

٧ ـ إنه ثَقيلٌ في انعكاسِه على مَنْ يحملُه، وفي النَّتيجةِ الَّتي تَبدو على مَنْ يَتدَبَّره ويلتزِمُه ويتحرَّكُ به:

فالقرآنُ الثَّقيلُ يُخرجُ المؤمنَ الثَّقيل، ويُفرِزُ العالِمَ الثَّقيل، ويُثمرُ المُصلحَ الثَّقيل.

إنَّ حامِلَ القرآن، المتحركَ به في الحياةِ ثَقيلٌ جادٌّ، غَيْرُ عابثٍ وَلا لاهٍ؛ فهو ثَقيلٌ في شخصيتِه، وفي اهتماماتِه، وفي آمالِه، وفي نشاطاتِهِ، وفي تَصَوُّراتِه، وفي وظيفتِه ورسالَتِه، وفي حركتِه وسعيِه، وفي جهادِه، ومواجهتِه، ثقيلٌ جادٌّ في نفسِه وبيتِه وعملِه، وبينَ إخوانِه، ومع كُلِّ النّاسِ الآخَرين.

***

سابعًا

مهمّة القُرآن في حياة الأمة



القرآنُ كتابُ حَياة، أَنزلَـه اللهُ للأُمَّة لتَحيا به، وجَعَلَ له مهمَّةً عمليةً حركيةً تربَويّةً جهادية.

وقد سَبَقَ أَنْ تَكَلَّمْنا عن هذا الموضوع، في كتابنا «مفاتيح للتعامل مع القرآن».

وقد كانَ كَلامُنا عن مهمـةِ القرآن، في أَوَّل ثَلاثِ مفاتيح عَرَضْناها، وهي: «النظرةُ الكليةُ الشَّاملةُ للقرآن» و«الالتفاتُ إِلى الأهدافِ الأَساسيةِ للقرآن» و«ملاحظةُ المهمةِ العمليةِ الحركيةِ للقرآن».

ونُحيلُ على كلامِنا هناك، ولا نُعيدُه مَنْعًا للتَّكرار.

وسـنورد هنا خلاصة الأفكار حول هذا الموضوع، بما يتناسب مع هذه الرِّسالة.

• نظراتٌ قاصرةٌ خاطئةٌ إلى القرآن:

نظرةُ بعضِ المسـلمينَ إلى القرآنِ غَيْرُ صَحيحَة، حيثُ يَنظرونَ إليه نظراتٍ قاصِرَةً خاطِئَة، فبعضُهم يَراهُ مجردَ كِتابٍ مُقَدَّس، أَو مجرَّدَ كَلامٍ بَليغٍ فَصيح، أَو مجرَّدَ كَلامٍ معجزٍ، أَو هو كَلامٌ عن السَّـابقين، نزلَ قبلَ

خمسةَ عشـرَ قَرْنًا، لكنه لا يصلحُ للبشـريةِ في هذا القرن، أَو هو كَلامٌ عادِيٌّ ليس فيه عُلومٌ ولا مَعارِف.

وبعضُ المسـلمينَ لا يتذكَّرُ القـرآنَ إِلَّا عندما يَمـوتُ له مَيِّتٌ، فيقرؤُه على الأَمْـوات، وبعضهُم يتبركُ به في الجَلسـاتِ واللِّقاءات والاحتفالات.

والمسؤولونَ لا يتذكَّرونَ القرآنَ إِلَّا عندَ افتتاحِ حَفَلاتِهم بآياتٍ من الذِّكْرِ الحكيم، وعند بدايَةِ البَثِّ الإذاعيِّ، أَو الإِرسالِ التلفزيوني.

وبعضُ المسـلمينَ يتذكَّرُ القرآنَ في رمضان، فيتْلـوهُ ويختِمُه، ثم يهجُرُه بعدَه، وبعضُ المسـلمين يقرأُ منه كُلَّ يوم، ولكن بنيَّةِ الحصولِ على الأَجْر والثَّواب.

- **النَّظرة الكليَّة الشَّاملة إلى القرآن:**

قلَّ مَنْ يَنظرُ إلى القرآنِ نظرةً شامِلةً، ويتعامَلُ معه على هذا الأَساس.

يَجبُ أَنْ نَنْظُرَ إلى القرآنِ نظرةً نافِـذَةً صَحيحة، وأَنْ نلحظَ العُمومَ والشُّمولَ في مهمتِه ورسالتِه.

يَجبُ أن نتعامَلَ مع القرآنِ باعتبارِه كَلامَ اللهِ للإِنْسان؛ ليُصْلِحَ حياتَه كُلَّها على أَساسِه، وكَلامَ اللهِ للبشريةِ لتُقيمَ حياتَها على أَساسِه.

القرآنُ كتـابُ حَياةٍ، ودعوةٌ إلى الحَياة، وخِطـابٌ للأَحياء، ومنهاجٌ للأَحْياء، ليَعيشوا حياتَهم على أَساسِه، ويَسْعَدوا بها، فتكونَ حَياةً عزيزةً، سعيدةً طَيِّبَة.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وبما أَنَّ القرآنَ كتابُ حَياة، ودَعوةٌ إلى الحياة، لتعيشَ البشريَّةُ هذه الحياة، فقد حوى المناهجَ والتَّشريعاتِ والنُّظُمَ التي تُحَقِّقُ هذه الحياة، وتَضَمَّنَ التقريراتِ والحقائق التي تُنشئُ هذه الحياة، وَعَرضَ البصائِرَ التي تُضيءُ الحياة.

والحياةُ التي يوجِدُها هذا القرآنُ في الأمَّة، تشملُ كافَّةَ جوانبِ ومجالاتِ الحياةِ الإنسانية: الفرديةِ والجماعية، النَّفسيةِ والعقلية، المادِّيَّةِ والمعنوية، الرُّوحيةِ والظَّاهرية، السياسيةِ والاقتصادية، الاجتماعيةِ والفنية، العلميةِ والعملية.

بهذه النظرةِ الكليةِ الشَّاملةِ إلى القرآن، وبهذا الهدفِ نتعامَلُ مع القرآن، وعلى أَساسِ هذه الحقيقةِ نتدَبَّرُ القرآنَ.

وعندَها سنعرفُ طبيعةَ ومهمَّةَ ورسالةَ هذا القرآن، ونقفُ على حقائِقه في هذه المجالات.

• الأَهدافُ الأَساسيةُ للقرآن:

انطلاقًا من حُسْنِ الإدراكِ لطبيعةِ القرآن، وحُسْنِ النَّظرةِ الكليةِ الشَّاملةِ إليه، فإِنَّنا سنقفُ على الأَهْدافِ الأَساسية له، التي يُحققُ من خلالِها مهمَّته، ويُقررُ رِسالتَه.

وهي أَهدافٌ تربويةٌ عمليةٌ حركيةٌ جهادِيَّة، أَهَمُّها:

١ ـ هداية النَّاس إلى الله:

هِدايةُ النّاسِ إِلى الله، وتَعريفُهم الطَّريقَ إِليه، وبيانُ ما أَوجَبَه عليهم، وما حَرَّمَه عليهم.

قالَ تعالــى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١٠].

وهدايةُ القرآنِ عامَّةٌ وشامِلَة، والحياةُ التي يهدي إِليها أَقوَمُ، في كُلِّ مظاهِرِها وأَلوانِها.

القرآنُ يَهدي الأَفراد والجماعات، والرؤساءَ والحكومات، والعلماءَ والمفكرين، على اختلافِ الزَّمانِ والمكان.

يَهـدي هؤلاء للَّتي هـي أَقومُ في الحيـاةِ السِّياسـيةِ والاقتصادية، والاجتماعيةِ والعلميّة، والفكرية والشُّعورية.

وعَدَمُ أَخْذِ هدايةِ القرآن يَجعلُ الإنسانَ في ضَلالٍ، والأُمَّةَ في عَمى، والحياةَ في ظَلام، فتعيشُ الأُمَّةُ حياةً سـيئةً باطِلَة، حياةً حيوانيةً هابِطَة، في مستنقعِ الشَّهواتِ والأهواء، والظُّلْم والبغي والعُدوان.

٢ ـ تَكوينُ الشَّخصيةِ القُرآنيةِ المُتكامِلَة:

تَكوينُ الشَّخصيةِ القُرآنيةِ الإِسلاميةِ المتكاملةِ المتوازنة؛ لأَنَّ القرآنَ خِطابٌ للإِنسان، فإِذا ما آمَنَ هذا الإِنسانُ به، وأَقبلَ عليه، وتفاعَلَ معه،

فإنَّ القرآنَ يُعيدُ صياغَتَه من جديدٍ، على هَدْيِ حقائِقِه وبصائِره، ويُكوِّنُ له شـخصيَّتَه النَّموذجيةَ السَّويَّة، ويُخرجُه إنْسـانًا حقًّا، يَعيشُ إنسانيتَه، ويتذوَّقُ حَياتَه، ويَقطعُ رحلَتَه في دنياه على أَنوارِ القُرآن.

قالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الإنْسـانُ من دونِ الصِّياغةِ والتَّربيةِ القُرآنية، أَعمى ضالٌّ، يَسيرُ في الظُّلمات، ليس بخارجٍ منها، ويَعيشُ حياةً حيوانيةً ضائِعَة.

والمؤمنُ بالقرآنِ يحيا حَياةً تَليقُ بالإنسان، يعيشُ حياتَه المباركَة في ظلالِ القرآن، ويتحركُ في عالَمِ النُّور.

٣ - إنشاء المجتمع القُرآني:

إنْشـاءُ المجتمعِ القرآنيِّ المنشـود، الَّـذي يكونُ انعاكسًـا عمليًّا لتوجيهاتِ القُـرآن، وترجمةً عمليـةً لحقائِقِه، وصورةً ماديَّةً مُشـاهَدَةً لمهمَّتِه ورِسالتِه وَأهدافِه.

يُطبِّقُ هذا المجتمعُ بكافَّةِ جوانِبِه ومؤسَّساتِه ورجاله وفئاتِه تشريعاتِ القرآن، ويكونُ القرآنُ فيه هو الدستورَ والقانونَ والتَّشريع، وهو المهيمنَ على ما سواهُ من أَفكارِ وتصوُّراتِ البَشَر.

وبذلك يُحققُ هذا المجتمعُ لأَفْرادِه الحياةَ الكريمةَ الطيبة، والسَّعادَةَ الإِنسانيةَ المنشودة، ويَعيشونَ حياتَهم الدنيا على هَدْيِ أَنوارِ القرآن.

هذا المجتمعُ الإِسـلاميُّ السَّـعيد، يَصِحُّ أَنْ يُعتَبر مجتمعَ القرآن،

والدَّولَةُ فيه دولَـةُ القرآن، والرَّايةُ فيه هي رايةُ القـرآن، والنِّظامُ فيه هو نظامُ القرآن، والشَّريعةُ فيه هي شريعةُ القرآن، ورجالُ هذا المجتمعِ هم جُنودُ القرآن.

وقد نجحَ القرآنُ فـي إيجادِ مجتمعِه القرآنـيِّ الأوَّلِ، وهو مجتمعُ الصَّحابة، الذين كانوا بحَقٍّ - جيلًا قُرآنيًّا فريدًا.

القُرآنُ حياةُ المجتمع، والاسـتجابةُ له تَحقيقٌ لهـذه الحياةِ الطيبةِ السَّـعيدة، وقد أَمَرَنا اللهُ أَنْ نسـتجيبَ لدعوتِه، وأَنْ نلحظَ هذا الهدفَ الأَساسيَّ له، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٤ - قيادة الأمة في مواجهة الأعداء:

قيادَةُ الأُمَّةِ الإسـلاميةِ في مواجهةِ أعدائِهـا، وجهادِهم، والتَّصدّي لهم، وهذا الهدفُ الرَّابعُ نتيجةُ الأَهدافِ الثلاثةِ السَّـابقة، يُحققُ مهمةَ القرآنِ العمليةَ التَّربويةَ الحركيةَ في حياةِ الأُمَّة.

فبعدَ أَنْ يَهْديَ المسـلمين إلى الله، وبعدَ أَنْ يَصوغَ النَّماذجَ القرآنيةَ الرَّفيعة، وبعدَ أَنْ يَبنيَ مجتمعَه القرآنيَّ الجادَّ السَّـعيد، لا بُدَّ أَنْ يرفضَ الأَعداءُ الكافرونَ هذا الجَنى القرآنيَّ، على مُستوى الأَفرادِ والجماعات، ولا بُدَّ أَنْ يَحرصوا على القَضاءِ على هذه الثمارِ القرآنيةِ الفَتيَّة.

لذلك يُحاربُ الأَعداءُ الكافرون رجـالَ القرآنِ وجُنودَه، ويُواجهونَ أُمَّتَه ودولَتَه، ويَشنّون عليهم حَرْبًا وحشيَّةً.

هنا يأتي القرآنُ ليَقودَ هؤلاء الجنودَ الذين أَنْشأَهم، وهذه الأُمَّةَ التي أَوْجَدَها.

إِنَّه يَقفُ بالمُسلمينَ أَمامَ أَعدائِهم، ويَخوضُ بهم المعرَكة، حيثُ يُعرِّفُهم على أَعدائِهم، وعلى طبيعةِ المعركة، وعلى أَسلحةِ الأَعداء، وهَدَفِهم منها، ومكائِدِهم ومؤامراتِهم فيها.

كما يُبَصِّرُ المسلمين بأَسبابِ النَّصْرِ وقواعِدِه، ليَأْخُذوا بها، وعلى عوامِلِ الهزيمةِ ليَحْذَروها، وعلى السُّنَنِ الرَّبانيةِ الثَّابتةِ في ذلك ليُراعوها ويُلاحِظوها.

فالقرآنُ كتابُ مواجهةٍ وتَصَدٍّ، وكتابُ قُوَّةٍ وتَحَدٍّ، وكتابُ تَثبيتٍ وتوعيةٍ، وكتابُ جِهادٍ كبيرٍ مستمرٍّ موصولٍ.

وهذا ما وَرَدَ في صريحِ آياتِه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

• مهمّة القُرآن العملية الحركية:

نُدركُ من هذه الأَهدافِ الأَساسيةِ الأَربعةِ للقرآن، طبيعةَ هذا القرآنِ العظيم، ومهمَّتَه العمليــةَ الحركيةَ التَّربويةَ الجهاديّــة، التي يحقِّقُها في حياةِ المسلمين.

وبهذا نزدادُ محبَّةً لهذا القرآن، وإِقْبالًا عليه، واعْتِصامًا وتمسُّكًا به، وحياةً في ظلالِه، وحركةً ودعوةً ونَشْرًا لهُداهُ وأَنْوارِه.

وبهذا نعرفُ كم يَخْسَرُ الذين لا يفهمونَ هذه المهمَّــةَ التَّربويةَ

الحركيةَ للقـرآن، والذين لا يَعرفونَ هذه الطَّبيعةَ لـه، والذين لا يَقفون على هذه الأَهداف، ولا يتعاملون معه على هذا الأَساس.

وبهذا نعرفُ سِـرَّ عُنْفِ عداوةِ الأعداءِ للقُرآن، وشـدةَ حَرْبِهِم له؛ لأَنَّهم يخشونَه على مكاسِـبِهم المُحَرَّمَة، ويَخافونَ أَنْ تَصِلَ أَنْوارُه إِلى شُـعوبِهِم المنهوبَة، فتتحـررَ من اسْـتِعْبادِهم، وتُلْقيهم عـن ظُهورِها، وتعتصم بهُدى القرآن.

إِنَّ الأَعداءَ حَريصونَ على عَدَمِ تمكيـنِ القرآنِ من تحقيق أَهدافِه في حياةِ المسـلمين، وعَدَمِ أَداءِ مهمَّتِه العمليةِ الحركيةِ فيهم، ولهذا يَصْرفونَ أَبناءَ المسـلمين ـ بغـزوٍ فكريٍّ مدروسٍ مُنَظَّـمٍ ذَكِيٍّ ـ عن القرآنِ وأَنـوارِه، ويَجعلونَهم في حَيْرَةٍ وضَيـاعٍ، بما يقدِّمونَ لهم من مناهجَ وَدَعواتٍ ورايات.

ويَشُـنُّ هؤلاءِ الأَعداءُ ـ في الدَّاخِلِ والخارج ـ حَرْبًا شَرِسَةً مُنَوَّعَةً على أَهْلِ القـرآنِ وجُنودِه، لئلا يتمكَّنَ هؤلاء من تربيةِ المسـلمين مع القرآن، وتطبيقِ أَحْكامِه في حياتِهم، وقيادَتِهم به.

لكنَّ جُهودَ هؤلاءِ الأَعداءِ في النِّهايةِ سَـتبوءُ بالفَشَل ـ إِنْ شاءَ الله ـ ولن يَنْجَحوا في إِطْفاءِ أَنوارِه، أَو إِبادَةِ جُنودِه، أَو إِفْشالِ مهمَّتِه: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨ ـ ٩].

ولا بُدَّ للمسلمين أَنْ يُعيدوا النَّظَر في نَظْرَتِهِم إِلى القرآن، وتعامُلِهم معه، وأَنْ يُصَوِّبوا الأخطاءَ في ذلك.

لا بُدَّ أَنْ يُلاحِظوا أَهدافَه الأَساسيَّة، وأَنْ يُحَقِّقوها في حياتِهم، وحياةِ الإنسانيةِ من حَوْلِهِم.

لا بُدَّ للمسلمين ـ إنْ أَرادوا أنْ يَعيشــوا حياتَهم في الدُّنيا، بسَعَادَةٍ وعِــزَّةٍ وكَرامَةٍ، وأَنْ يَعودوا إلى قيادَةِ البشــريةِ من جديــدٍ ـ أنْ يُدْرِكوا المهمَّةَ العمليةَ الحركيةَ التَّربويَّةَ للقرآن، وأَنْ يتفاعَلوا بها، وَأنْ يَنْطلِقوا منها.

القرآنُ كتــابُ تربيةٍ وتزكيةٍ، وكتابُ توجيهٍ وهدايةٍ، وكتابُ تَشــريعٍ وَحُكْمٍ وقَضاءٍ، وكتابُ جِهادٍ ومُواجَهةٍ، وكتابُ تَصَدٍّ وتَحَدٍّ، وكتابُ عِلْمٍ وَمعْرِفَةٍ، وكِتابُ ثَقافَةٍ وحَضارَةٍ، وكتابُ دعوةٍ وَحَركَةٍ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، على نِعْمَةِ هذا القرآنِ العظيم.

* * *



ثامنًا

نعمة الحياة في ظلال القرآن



• سيد قطب وحياته في ظلال القرآن:

«الحياةُ في ظلالِ القرآنِ نِعْمَة» بهذِه العبارةِ افتتحَ سيد قطب تفسيرَه الرَّائدَ: «في ظلال القرآن».

وكلُّ مسلمٍ صادقٍ يعرفُ سيد قطب، وجهودَه في الدَّعوةِ إلى الله، ومواجَهَةِ الظَّالمين المُجرمين، وخدمَةِ دينِ الله، وتفسيرِ كتابِ الله، ويعلمُ الدراساتِ الإسلاميةَ النَّاضجةَ التي أَصْدَرَها، وحياتَه العمليةَ الجهاديَّةَ، التي خَتَمها اللهُ له بالشَّهادة - إنْ شاءَ الله - حيثُ أَقْدَمَ الطُّغاةُ على إعدامِه وإزهاقِ روحِه صَبيحةَ يومِ الإثنين (١٩٦٦/٨/٢٩م).

وتفسيرُ «سيد قطب» الذي أَسْماهُ: «في ظِلالِ القرآن»، أَصْبَحَ مَرْجِعًا أَساسيًّا لكُلِّ مسلمٍ معاصر، يُريدُ أَنْ يُحسنَ فَهْمَ كتابِ الله، وإدراكَ مُهِمَّتِه العمليةِ الحركيةِ التَّربويةِ الجهادية.

وقد اختارَ سيد قطب لتفسيرِه هذا العنوانَ المثيرَ «في ظلال القرآن»، الذي يدلُّ على طبيعة هذا التفسير، فَهو تَسجيلٌ للمعاني والدلالاتِ والحقائقِ التَّربويةِ والجهاديةِ والحركية، التي أَدركَها سيد قطب - بفضْلِ الله - وهو يُمعنُ النَّظرَ في القرآن، ويتدبَّرُ آياتِه، ويَسْتروحُ الحياةَ معه، ويتحرَّكُ به حركةً عمليةً في مواجهةِ الباطل.

وقدِ ابتدأ سيد قطب «الظِّلالَ» بعباراتٍ ذاتِ دلالة، تَدُلُّ على نعمةِ الحياةِ في ظلالِ القرآن، وسعادَةِ مَن استمتعَ بهذه الحياة.

قالَ في أَوّلِ فقْرَة من الظّلال: «الحيــاة في ظلالِ القرآنِ نِعْمَة، نِعْمَةٌ لا يَعرفُها إلَّا مَنْ ذاقَها، نِعْمَةٌ ترفعُ العُمُرَ وتُباركُه وتُزَكّيه.

والحمدُ لله، لقــد مَنّ اللهُ عَلَــيَّ بالحياةِ في ظلال القــرآن فَتْرَةً من الزّمان، ذُقْتُ فيها من نعمتِه ما لم أَذُقْ قَــطُّ في حَياتي، ذُقْتُ فيها هذه النعمةَ التي تَرْفَعُ العُمُرَ وتُباركهُ وتُزَكّيْه»[١].

ولقد سَــجَّلَ ســيد قطب في مقدمــةِ الظِّــلال: «بعــضَ الخواطرِ والانطباعات، عن فترةِ الحياةِ في ظِلالِ القرآن»[٢].

وهي خواطِرُ وانطباعاتٌ هامَّة، يَجبُ أَنْ يُلاحِظَها كُلُّ مسلمٍ صادق، يُريدُ أَنْ يَحْيا في ظِلالِ القرآن، ويتذَّوقَ فيهــا هذه النعمة، ولهذا نُحيلُ القارئ على مقدمةِ الظِلال[٣] لينتفعَ بها، ويســتفيدَ منها، ويلاحظَها في تَدَبُّره هو للقرآن، وحياته في ظلاله.

• نظرة سيد قطب لِسُوَر القُرآن:

وقد أخبرنا سيد قطب عن نظرتِه لسُورِ القرآن وهو يَعيشُ في ظلاله، وعن أُنسِــه بالتَّعامُلِ معها؛ فقالَ في تقديمِه لســورةِ الأَعْراف: «إنَّ كُلَّ سُــورَةٍ من سُــوَرِ القرآن ذاتُ شــخصيَّةٍ متفردَة، وذاتُ ملامحَ متميِّزة،

(١) في ظلال القرآن: ١/٥.

(٢) المصدر السابق: ١/١٨.

(٣) المصدر السابق: ١/٥ ـ ١٨ من طبعة دار الشروق.

وذاتُ منهجٍ خاص، وذاتُ أُسْـلوبٍ مُعَيَّن، وذاتُ مجالٍ متخصِّصٍ في عِلاج هذا الموضوعِ الواحد، وهذه القضيةِ الكبيرة.

إِنَّها كُلّها تتجمَّعُ على الموضوعِ والغاية، ثم تأخذُ بعدَ ذلك سِماتِها المستقلَّة، وطرائقَها المتميزة، ومجالَها المتخصِّصَ في علاجِ هذا الموضوع، وتحقيقِ هذه الغاية.

إِنَّ الشأنَ في سُوَرِ القرآن ـ من هذه الوجهة ـ كالشَّأْنِ في نماذِجِ البَشَر التي جَعَلَها اللهُ متميِّزَة؛ كلُّهم إنسان، وكلُّهم له خَصائِصُ الإنسانية، وكلُّهم له التكوينُ العضويُّ والوظيفيُّ الإنْساني.. ولكنَّهم بعدَ ذلك نماذجُ مُتنَوِّعَةٌ أَشَدَّ التنويع، نماذجُ فيها الأَشباهُ القريبةُ الملامح، وفيها الأَغيارُ التي لا تَجمعُها إِلَّا الخصائصُ الإِنسانيةُ العامَّة.

هكذا عُدْتُ أَتصوَّرُ سُوَرَ القرآن، وهكذا عُدْتُ أحسُّها، وهكذا عُدْتُ أَتعامَلُ معها.. بعدَ طولِ الصُّحْبَة، وطولِ الأُلْفَة، وطولِ التَّعامُلِ مع كُلٍّ منها، وِفْقَ طِباعِهِ واتِّجاهاتِه، وملامحِه وسِماتِه.

وأَنا أَجِدُ في سُوَرِ القرآنِ ـ تبَعًا لهذا ـ وَفْرَةً بسببِ تَنَوُّعِ النَّماذج، وأُنْسًا بسبب التعامُلِ الشَّخصيِّ الوثيق، ومَتاعًا بسببِ اختلافِ الملامحِ والطِّباع، والاتجاهاتِ والمطالِع.

إِنَّها أَصْدِقاء.. كُلُّها صَديق.. وكُلُّها أَليف.. وكُلُّها حَبيب.. وكُلُّها مُمْتِعٌ.. وكُلُّها يَجِدُ القلبُ عندَه أَلوانًا من الاهتماماتِ طريفة، وأَلْوانًا من المتاعِ جَديدة، وأَلْوانًا من الإِيقاعات، وألوانًا من المُؤَثِّرات، تَجعلُ لها مذَاقًا خاصًّا، وجَوًّا مُتَفرِّدًا.

ومُصاحَبَةُ السُّـورَةِ من أَوَّلِها إلـى آخِرِها رِحلَـة.. رِحْلَةٌ في عوالم ومَشـاهِد، ورؤًى وحقائق، وتقريراتٍ وموحيات، وغَـوْصٍ في أَعماقِ النُّفوس، واسْـتجلاءٍ لمشـاهِدِ الوُجود.. ولكنَّها كذلك رِحْلَـةٌ متميزةُ المعالِمِ في كُلِّ سورَة، ومع كُلِّ سورَة»[1].

وقد آثَرْنا نَقْلَ كَلامِ سيد قطب بتمامِه، لنطَّلِعَ من خلالِه على حُسْنِ نظرتِهِ لسُوَرِ القرآن، عندما تَذَوَّقَ نعمةَ الحياةِ في ظلال القرآن.

• الاستمتاع بمصاحبة القرآن:

ليس كُلُّ مَنْ قَرَأَ القرآنَ اسْـتَمْتَعَ بمصاحَبتِه، ولا سَعِدَ بنعمةِ الحياةِ في ظِلالِه، فهناكَ مَنْ يقـرؤُه لمجردِ التلاوةِ والقـراءة، لتحصيلِ الأَجرِ والثَّواب، وهناك مَن يَتْلوهُ وهو يَنظرُ إلى آخِرِ السُّـورَةِ والجُزْء، ويتمنّى الإسراعَ في الوصولِ إليها، وهناك مَنْ يَتْلوهُ فيُصابُ بمَلَلٍ أَوْ ضَجَرٍ.

الذي يسـتمتعُ بتلاوةِ القرآنِ وتَدَبُّرِه، ويَأْنَسُ بمصاحبتِه والحياةِ في ظِلالِه، هو الذي «يُفَرِّغُ» قلبَه ونفسَـه ومشـاعِرَه وكيانَه لتلَقِّي إِيحاءاتِ القرآن، وحُسْنِ تدبُّرِه وفهمِ آياتِه.

ولهذا كان الصَّحابَةُ يقولـون: «لو طهرت القُلوبُ لما شَـبِعَتْ من كَلامِ الله». ويَقولون: «إِنْ كانَ المسلمُ يُحِبُّ اللهَ فهو يُحِبُّ القرآنَ».

الذي يُحسـنُ تدبُّرَ وفهمَ القرآن، هو الذي يأْنَسُ ويَسْـعَدُ ويستمتعُ بمصاحبةِ القرآن، والحياةِ في ظِلالِه.

---

(١) الظلال: ١٢٣٤/٣.

عندما يَعيشُ المؤمنُ مع القرآنِ فهـو يَعيشُ مع الكونِ وآياتِه، ومع التّاريخِ وأَحداثِه، ومع الطبيعـةِ وظواهِرِها، ومع النفسِ وخفاياها، ومع الناسِ من حولِـه وميولِهم، ويتجـاوزُ هذه الدنيا، ليعيـشَ مع الآخرةِ بمشاهدِها.

ويَتحققُ هذا مع مصاحَبَةِ أَيَّةِ سورَةٍ من سُـوَرِ القرآن، كما سَبَقَ أَنْ أَوْرَدْنا كلامَ سيد قطب.

• تنوع وتتابع موضوعات السُّور:

الذي يعيش مع السُّـورة ـ أَيَّةِ سـورَة ـ بقَلْبٍ ووعْيٍ وصَفاءٍ؛ يَجِدُ عِنْدَها زادًا عَظيمًا من المعاني والإِيحـاءات والدّلالات، ويُصاحِبُها في رحلَةٍ شيِّقةٍ ممتعةٍ.. يجدُ هذه السُّورَةَ صَديقًا حَبيبًا له، يُؤْنِسُه، ويُحادِثُه، ويُعَلِّمُه، ويُصاحبُه، ويَرتحلُ معه.

تصحبُ السورَة قارِئَها في رحلَةٍ في عوالِمَ ومجالاتٍ عديدةٍ مُنَوَّعَة، فتقدمُ له لقطةً إيمانيَّـةً عَقَدِيَّةً، وتوجيهًا تَرْبَوِيًّا، وتصويرًا فنيًّا لمشـهدٍ، وعَرْضًا تاريخيًّا، وسُنَّةً ربَّانية، وحُكْمًا تشريعيًّا، وتَحليلًا نَفْسِيًّا، وتصويبًا اجتماعيًّا أَخْلاقِيًّا، وإِشارَةً سياسيّةً أَوِ اقتصاديَّةً، ومَشْهدًا ليومِ القيامةِ.

وتتوالى هذه اللقطاتُ واللَّفَتاتُ والمشاهد على هذا القارئ، بتناسُقٍ وتَرتيبٍ وانسِـجامٍ، وهو يَتفاعَلُ معها، ويَأْنَس بهـا، ولا يَمَلُّ المتابَعَةَ والاستمتاع، وتَتتابَعُ المناظرُ واللَّوْحاتُ على خيالِه وكيانِه، ويَجولُ معها هنا وهناك، ويتحرَّكُ ويتأَثَّرُ، ويَطوفُ في هذه العوالِم، وما زالَ جِسْـمُه في مكانِه.

ويَعودُ من رحلَتِه مع السُّـورَةِ وعوالمها، بزادٍ ضَخْم، وثِمارٍ عظيمةٍ، ونتائجَ باهِرَة، ويستخلصُ منها الدِّلالاتِ والدُّروسَ والعبر، في الإيمانِ والدَّعوة، والتَّوجيهِ والتَّربية، والإصلاحِ والعمل، والنَّفسِ والمجتمع.

ويَنتقلُ إلى سـورَةٍ أُخْرى، ليرتحلَ معها رحلَةً أُخـرى، ولتقدِّمَ لهُ مشاهِدَها ولقطَاتِها بطريقةٍ أخرى... وسورةٍ ثالثةٍ ورابعةٍ، وهكذا.

هذه هي الحياةُ الحقيقية، يعيشُـها عندما يَعيـشُ في ظلالِ القرآن، ويَستَمتِعُ بمصاحبةِ سُوَرِ القرآن، وهي حياةٌ كَريمةٌ طيّبة، سعيدَةٌ عزيزةٌ.

أَيْنَ هذا الاسـتمتاعُ والاسـترواحُ والأُنْس، من الشَّـقاءِ والتَّعاسـةِ والتَّمزُّقِ والضَّياع الذي يَجدُه الإنسـانُ الكافر، وهو يَعيشُ حياةَ البُؤْسِ مع عَذابِ الجاهلية، ويَلْهَثُ في صَحْرائِها المحرقةِ الملتهبة؟!.

• جولة مع سورة الفجر:

يَنطبقُ كلامُنا السَّـابقُ على أيَّةِ سـورةٍ من سُـوَرِ القرآن، يُصاحِبُها القارئُ ويرتحلُ معها في جولَةٍ ممتعةٍ.

ونقدِّمُ مِثالًا على ذلك في سُـورةٍ من قِصارِ السُّـور، ونُسَجِّلُ بعضَ ما يجدُه القارئُ من مصاحبتِها والجولةِ معها، بمنتهى الإيجازِ والاختصار.

هذه السُّورَةُ هي سورةُ الفَجْر.

وهي سـورَةٌ مكّيَّة، نَزَلَتْ بعدَ سورَةِ اللَّيْل، وآياتُها ثَلاثونُ آيَة. قَبْلَها سـورتا الأَعلى والغاشـية. وبعدَها سُـوَرُ: البلد، والشـمس، والليل، والضُّحى، والانشراح.

١ ـ مع مقدمة السُّورة:

تبدأ السُّـورة بالقَسَـمِ، حيثُ يقسـمُ اللهُ بأَربعةٍ من مخلوقاتِه: الفجر، والليالي العشر، والشـفع والوتر، والليل عندما يسري وينتشر؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١ ـ ٤].

ويُعْتَبَرُ هذا القَسَـمُ بهذه المخلوقاتِ الأَربعةِ نافِعًـا لكُلِّ ذي عَقْلٍ كبيرٍ، يَحْجُـزُ صاحِبَه ويمنَعُه عن فعلِ القَبيـح؛ قال تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

يسـتمتعُ القارئُ بالفَجْر، الذي يُشـيرُ إِلى ولادَةِ يَوْمٍ جَديدٍ، حيثُ يخرجُ فيه نورُ النَّهارِ من وَسْطِ ظَلامِ اللَّيل، ويَفْجُرُه فَجْرًا.

يَعْقُبُ الفَجْرَ الليالي العَشْرُ، وبعدَهما الشَّفْعُ والوَتْر. والشَّفْعُ يَنطبقُ على اللَّيالي العشر؛ لأَنَّها تُقْسَـمُ على اثْنين. والوَتْرُ ينطبقُ على الفَجْرِ؛ لأَنَّهُ واحِد.

ولا يَـبْقى الفجرُ مكانَه واقفًا، بل تُشـرقُ الشَّمسُ بعدَه، ثم ينتصفُ النَّهار، ثم تَغيبُ الشَّمسُ، ويَنتهي ذلك اليوم، ويَأْتي الليلُ يَسْري، ليعُمَّ الأَرْضَ، ويَنْشُرَ ظلامَه عليها.

وهذا الليلُ ليس سَرْمَدًا، فما هي إِلَّا ساعات، ويَذْهَبُ هذا الليل وَيَتَبَدَّدُ ظلامُه، ويَفْجُرُه الفَجْرُ ويَحِلُّ مَحَلَّهُ، وتَبْدَأُ الحياةُ العمليَّةُ بيومٍ جَديدٍ.

وهكذا يَسـتروحُ القارئُ هذه الجولَةَ مع هذه الآيـاتِ الأربع، في بدايةِ هذه السُّورة، ويَسـتمتعُ في تَحلِّي الفجرِ والليلِ، والشَّفْعِ والوَتْرِ، وولادةِ يومٍ جديدٍ، وموتِه عند الغُروب.

ويَستفيدُ من ذلك دُروسًا وعِبرًا حولَ الحياةِ والموت، والولادَةِ والوفاة، والتَّغيُّرِ والانتقال، وانتهاءِ الأعمارِ والآجال، وانقضاءِ هذه الحياة، فيُقْبِلُ على اللهِ الخالقِ الباقي سُبحانَه، ويَحجُرُه عقْلُه عن الكفر، ويردَعُه عن الباطل، ويمنعُه عن القبيح.

ولهذا جاءَت الآيَةُ الخامسةُ ثَمَرَةً لما سَبَقَها من آياتِ القَسَم الأَرْبع.

٢ ـ مع الدَّرس الأول من السُّورة:

بَعْدَ هذه المقدمةِ تأتي آياتُ الدَّرس الأول من السُّورة؛ وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

تتحدّثُ الآياتُ عن الكُفّارِ الطُّغاة المفْسِدين من السَّابقين، وتَعرضُ نَماذجَ وأَمثلةً لهم؛ هم: عادٌ، وثمودُ، وفِرْعَونُ.

ويَرتَبطُ الدَّرسُ الأَوّلُ مع المقدمةِ ارْتباطًا وثيقًا، فقد أَخْبرَت المقدمةُ: أَنَّ أَصْحابَ العقولِ السَّليمَة المستقيمةِ هُمُ الذين يَتفاعَلونَ مع آياتِ اللهِ الكونيةِ، فيُقْبلونَ على الله، ويرتدعون عن الكفر والحرامِ والباطلِ.

فناسَبَ أَنْ تَنتقلَ آياتُ السُّورةِ للحديثِ عن القومِ الذين لم يَنْتَفِعوا بعقولِهم، ولم يَتفاعَلوا مع آياتِ اللهِ من حولِهم، وآثَروا على ذلك أَنْ يكَونوا كفّارًا، طُغاةً، بُغاةً، مُفْسِدين.

يذهبُ القارئُ ـ وهو يَعيشُ مع هذه السُّورةِ القصيرة ـ إلى التَّاريخِ الماضي، ويتجوَّلُ في ميادينِه بخيالِه ومشاعِرِه وكيانِه، ويكادُ يَرى ويسمعُ أَحداثَه ومشاهِدَه.

يَبدأُ جولَتَه المتخيَّلَةَ الحيَّةَ مع «عادِ إِرَمَ» ذاتِ الأعمِدةِ، التي كانَتْ تَسكنُ في بيوتٍ لها أَعمدَة، ومضاربَ شَعَرٍ لها أَعْمِدَة، هذه القبيلةُ القويَّةُ «عادُ إِرَم» التي كانَتْ أَقوى القبائِلِ في وقْتِها، فلم يَخْلُق اللهُ قبيلَةً أُخرى في وَقْتِها بمثْلِ قُوَّتِها.

ويتجوَّلُ القارئُ في خَيالِه بين مَضارِبِ عادٍ ومَبانيها، ويُعايِشُ قُوَّتَها وافتخارَها، ويَرى طُغْيانَها، وبَطْشَها، وتَجَبُّرَها، وإِفْسادَها.

ويَنتقلُ القارئُ مع المثالِ الثَّاني الذي تُقَدِّمُه الآياتُ، مع «ثمودَ»، تلك القبيلةُ القويَّة، المنبثقةُ عن قبيلَةِ «عادٍ» والوارثَةُ لها في قُوَّتَها، حيثُ قامَ أفرادُ قبيلَةِ «ثَمودَ» بقَطْعِ الصُّخورِ ونَحْتِها، وجَعَلوا مساكِنَهم في سُفوحِ الجبال، حيث كانَتْ بُيوتُهم مشقوقَةً فيها.

ويَكادُ القارئُ يرى أَفرادَ قبيلَةِ ثَمود، وهم يَنْحِتون بُيوتَهم وسطَ الصُّخور، ويَكادُ يدخُلُ عليهم بُيوتَهم الصَّخرية، ويشارِكُهم الجلوسَ فيها، وَيقِفُ على استخدامِهم هذه القوةَ في الظُّلمِ والطُّغيانِ والفَساد.

ويَدَعُ القارئُ قبيلَةَ ثَمودَ في مساكِنِها الصَّخرية، ليرتحلَ مع آياتِ الدرسِ إلى المثالِ الثالث الذي تعرضُه؛ إلى «فِرْعَوْن» «ذي الأَوْتاد» ويتخيَّلُ مُلْكَ وقُوَّةَ فرعون، ويَرى «أَوْتادَه» التي تُثَبِّتُ وتُقَوِّي مُلكَه.

٣ ـ الطُّغيان والفَساد وسوط العذاب:

يَجمعُ القارئُ هذه النَّماذجَ الثلاثةَ من الطُّغاةِ البُغاة، الذين لم يَستخدموا عُقولَهم بما ينفعُهم، بل استغَلّوها بالبَغْيِ والبَطْش: عاد، وثَمود، وفرعون، يَجمعُهم في خيالِه، كما جَمعَتْهم له السُّورة، ويَرى القاسِمَ المشتركَ الذي جَمَع بينَهم، والصّفاتِ العامَّة التي وَحَّدَتْ بينَهم، رغمَ اختلافِ زمانِهم ومكانِهم.. إنّه الطُّغْيان: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ١١].

ويقفُ القارئُ مع الحقيقةِ الدَّائمةِ التي تُقرِّرُها الآياتُ، وهي تَعرضُ مصارعَ السَّابقين، هذه الحقيقةُ تَبدو في معادَلَةٍ قرآنيةٍ، لا تَتَخلَّفُ ولا تُخْطئُ: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۞ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١١ ـ ١٤].

المعادَلَـةُ القرآنيةُ هي: كُلُّ طُغْيانٍ في البلاد، يَنتجُ عنه إكْثارٌ في الفَساد، وينتجُ عن الطغيانِ والفَسادِ: العَذابُ والعقاب، يوقِعُه اللهُ بالطُّغاةِ الفاسدينَ المفْسِدين.

وهذا ليس خاصًا بالطُّغاةِ السَّابقين كعادٍ وثمودَ وفرعونَ، ولكنه قاعِدَةٌ مُطَّرِدَة، وسُنَّةٌ ربانيَّةٌ دائِمَة، تنطبقُ على الطُّغاةِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

ففي الدَّرْسِ الأَوَّل من هذه السورة، يستفيدُ القارئُ معلوماتٍ تاريخيَّةً، وحضاريَّةً، وعمرانيةً، وإنْشائية، وتَحليلاتٍ في الحكمِ والسُّلطان، والسّياسَةِ والإدارة، وتحليلاتٍ نفسيَّةً واجتماعية.. دُروسًا في التَّحليل والاستنتاج، ويَقفُ على حقائقَ وعِبَر، ومُعادَلاتٍ وسُنَن.

٤ ـ مع الدَّرس الثَّاني منَ السُّورة:

وبعد أنْ يخرجَ القارئُ من الدَّرسِ الأوَّلِ بهذا الزَّادِ الوَفير من المعاني والحقائقِ، والدروسِ والعبر، والسُّنَن والقواعد، ينتقل إلى الدَّرس الثَّاني.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ٢٠].

يتحدَّثُ الدَّرسُ الثَّاني عن الإنسانِ الذي لا يُحسنُ الاستفادَةَ من عقلِه، والانتفاعَ به، وبذلك يُخطئُ في الوَزْنِ والتَّقويمِ والاستنتاج، ويُخطئُ في الفعلِ والتَّصرُّفِ والسُّلوك.

ويَربطُ القارئُ المتفاعِلُ في الحياةِ مع السُّورة بينَ الدَّرْسِ الأَوَّلِ والدَّرسِ الثَّاني.

فقد عَرَضَ الدرسُ الأَوَّلُ نماذجَ تاريخيةً للذين لم يُحْسِنوا الاستفادَةَ من عُقولِهم، فطَغَوْا وأَفْسَدوا.

أَمّا الدَّرسُ الثَّاني فإنَّه يَعْرِضُ نماذجَ حَيَّةً واقِعِيَّة، للذين لم يُحْسِنوا الاستفادَةَ من عُقولِهم، فاخْتَلَّ عندهم النَّظرُ والمقياسُ والميزانُ.

وبينما يستحضِرُ القارئُ النَّماذجَ التَّاريخيَّة في خيالِه تَخَيُّلًا، فإنه يتذكَّرُ النَّماذجَ الواقعيَّة في الدَّرسِ الثَّاني تذَكُّرًا؛ لأَنَّه رآها في حياتِه فِعْلًا، وتعامَلَ مَعَها حقيقةً، وعايَشَها مُعايَشَةً، فعندَما يَقْرَأُ آياتِ الدَّرسِ الثَّاني فإنه لا يحتاجُ إلَّا إلى مجردِ التذكُّرِ والاسْتِحْضار.

كم رأى القارئُ في عالَم الواقِع أشخاصًا أحياء، لم يُحْسِنوا الاستفادَةَ من عُقولِهم، ولم يُوَظِّفوها بما يُحَقِّقُ سَعادَتَهم.

٥ ـ خطأ في النَّظر والسُّلوك:

الواحدُ من هؤلاءِ لا يُحسنُ فَهْمَ الامتحانِ والابْتِلاء، في السَّرَاءِ أَو الضَّرَّاء، فَعقْلُه القَاصِرُ يربطُ الإحْسانَ والإهانَةَ بالمالِ والرّزق.

إذا ابْتَلاهُ اللهُ بالنِّعْمَة، فأَكْثَرَ له المالَ والمَتاعَ والتَّنَعُّم، فإنَّه لا يدركُ أَنَّهُ ابتلاءٌ بالنِّعْمَة، وإنَّما يجعلُه تكريمًا من الله، وعلامَةً على حُبِّه لَه، ورِضاهُ عَنه.

وإذا ابتلاهُ اللهُ بالتضييقِ عليه في رِزْقِه، فَقَلَّلَ عليه المالَ والمتاع، وضَيَّقَ عليه مَظاهِرَ الرَّفاه، فإنه لا يدركُ أَنَّ هذا ابتلاءٌ بالضَّرّاء، وإنما يجعلُهُ إِهانَةً وعُقوبَةً من اللهِ له، وعلامَةً على عَدَمِ رِضاهُ عنه، فيسخَطُ على ما قَدَّرَهُ الله له.

إنَّ رَبْطَ التَّكريمِ والإهانَةِ من الله، بالمالِ والمتاع والرِّزْقِ الماديِّ، قِلَّةً أَو كَثْرَةً، وعَدَم إِدْراكِ حكمَةِ اللهِ في الابتلاء بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، دليلٌ على ضيقِ الأُفُق، وسَذاجَةِ العَقْل، وماديَّةِ التَّفكير والتعليلِ والاستنتاج.

ويَنتُجُ عن هذا التفكيرِ العقليِّ القاصِر، والوَزْن الفعليِّ الخاطئ، بهؤلاءِ السُّذَّج من ذَوي العُقولِ الضَّيِّقَة، إقْبالُ هؤلاءِ السُّذَّجِ على الدُّنيا ومَتاعِها، وتَهالُكِهِم على أَموالِها ومُمتلكاتِها.

وهم في زحمةِ هذا التَّهالُكِ والتَّدافُع، يُفْسِدونَ أَخْلاقَهم، ويَطمسونَ

فِطْرَتَهم، ويَقْضون على نوازعِ الخيرِ عندهم، فلا عَقْلَ مُتَّزِنَ عندهم يردَعُهم عن غيهم، ويلفتهم إلى ما ينبَغي لَهم أَنْ يَفْعلوه.

إِنَّهم لا يُكرمونَ اليَتيم، ولا يَتحاضُّونَ على إطعامِ المسكين، ويتحوَّلونَ إلى مَخْلوقَاتٍ آدميَّةٍ مُشَوَّهَة، يتعامَلونَ مع الحياةِ بِنَهَمٍ وجَشَع، فهم يأْكُلونَ التُّراثَ الذي يَتوارثونَه أَكْلًا لَمًّا يَلُمُّونَه من هنا وهناك، ويَجمعونَه من أَيِّ مَصْدَرٍ! وهم يُحِبّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا كَثيرًا، حيثُ سيطرَ حُبُّ المالِ على قلوبهم، فأَعْماها عن الحَقّ.

ويتذكَّرُ القارِئُ ـ وهوَ يَتْلو هذه الآياتِ التي تُحَلِّلُ نُفوسَ المادِّيين ذَوي العقولِ القاصرة ـ أمثلةً ونماذجَ حَيَّة، رآها أَمس أَو اليوم، ويَعرفُ سِرَّ ما هي عليه.

٦ ـ مع الدَّرس الثَّالث من السُّورة:

وبعد أن يرتحلَ القارئُ مع التَّاريخِ الماضي في الدرسِ الأَوَّل، ويتجَوَّلَ مع الواقعِ المُعاشِ في الدَّرْسِ الثّاني، لم يَبْقَ إلَّا أنْ تنقُلَه السورَةُ إلى المستقبل، وهُنا يأتي الدرسُ الثالثُ، ليَطْوِيَ أَمامَ القارئ الدُّنْيا طَيًّا، بمراحِلِها وقُرونِها، ويَأْخُذه معه ليومِ القِيامَة، ويوقِفه على مشاهِدِ الآخِرَة.

قالَ تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٦].

ويَنفعلُ القارئُ وهو يتابعُ بخيالِه ومشاعِره هذه المشاهِدَ المعروضَةَ ليومِ القيامة؛ فهاهي الأَرْضُ ـ التي تَهالَكَ عَليها أَصحابُ العقولِ القاصِرَةِ في الدَّرسَيْن السَّابقَيْن ـ تُدَكُّ دَكًّا دَكًّا، وهاهي الملائكةُ تأتي أَمامَ الأَحياءِ المبعوثين صَفًّا صَفًّا، واللهُ العظيمُ سبحانَه يتجلَّى على خَلْقِه الواقفين للحسابِ تَجَلِّيًا يَليقُ بعظَمتِه.

وفي هذا المشهدِ الصَّاخِب، المسيطر على خَيالِ ومَشاعِرِ القارئ، يُؤتى بجهَنَّمَ الضَّخمة، تَسوقُها الملائكةُ الغِلاظُ الشِّدادُ، ويوقِفونَها أَمامَ الأَحياءِ المبعوثين، ويَسمعُ هؤلاء شَهيقَ جهنَّمَ وتَغَيُّظَها وزَفيرَها وفَورانَها، فيَتقطَّعُ الكفارُ الطُّغاةُ المفسدون ـ أَصحابُ العقولِ القاصرة ـ منها خَوْفًا وهَدمًا ورُعْبًا. ويطولُ تملّي وتَخَيُّلُ وانفعالُ القارئ بهذا المشهدِ الحَيِّ المتحركِ ليوم البَعْث.

٧ ـ صحوةٌ متأخرةٌ لذي العقل القاصر:

وكم يَعجبُ القارئ عَجَبًا كَبيرًا وهو يَرى بخيالِه ومشاعِرِه، ذلك الإِنسانَ الكافِرَ الطّاغيَ المفسدَ ـ صاحِبَ العقلِ القاصِرِ في الدنيا، المُتَهالِك على المالِ والمتاعِ ـ وهو يَصْحو ويَسْتَيقظُ على هَوْلِ مَشاهِدِ البَعْث، فيكبُرُ عَقْلُه، ويَعي، ويَستوعبُ الحقائِقَ، ويتذكَّرُ، ويَتَّعِظُ... لكن متى؟ بعد فَواتِ الأَوان!.

يتذكَّرُ هذا الإِنسانُ يومَ القيامة، وأَنّى لَه الذِّكْرى، فيعرفُ كَمْ كان خاسِرًا، عِنْدَما لم يستفدْ من دُنياه، ولم يَتَّعِظْ بعَقْلِه، ولم يَستوعِبْ ما مَرَّ به في الدُّنيا.

ويَسمعُه القارئُ المنفعلُ في هذه الجولَة، وهو يُطْلِقُ عِبارَةً يملَؤُها نَدَمُه وخَسارَتُه، وحَسْرَتُه وفَشَلُه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

ويَلتقطُ القارئُ المتأثِّرُ بما يَرى ويسمعُ في خَيالِه، هذه الإشارَةَ من الآية، ويوقنُ أَنه ما زالَ أَمامَه مُتَّسَعٌ من الوَقْت، وما زالَتِ الفُرْصَة سانِحَةً، فلِماذا لا يُقَدِّمُ لحياتِه الحقيقية، التي سَيَنْتَقِلُ إليها هُناك؟ ولماذا لا يُعْمِلُ عَقْلَه؟ ولماذا لا يعي به ويَتَدَبَّرُ؟ فيكونُ له بذلك عبرة؛ لأنه ذو عَقْلٍ كَبير، وحِجْرٍ مَتينٍ.

وبينما القارِئُ ما زالَ مُتَأَثِّرًا بذلك المَشهَدِ الحَيِّ المُتَحرِّك، يَسمعُ الحُكْمَ الصّادِرَ على أُولئك الطُّغاةِ المُفسِدين، الواقِفينَ أَمامَ اللهِ وَحْدَه، صاحِبِ الأَمْرِ والسُّلطانِ والقُوَّة، فهو الذي لا يُعذِّبُ أَحَدٌ من المخلوقينَ عَذابَه، ولا يَرْتَقي عَذابُ أَيِّ طاغِيَة - من عادٍ وثمودَ وقومِ فرعونَ - إلى دَرَجَةِ عَذابِه، ولا يَرْتَقي وَثاقُ أَحَدٍ من البَشرِ إلى درجَةِ وَثاقِه.

ويكادُ القارئُ يَسمعُ سِياطَ مَلائكةِ العَذاب، وهي تَهْوي بَأَمْرِ اللهِ على أَجْسادِ الطُّغاةِ المُفْسدينَ الكُفَّار - ذوي العقولِ القاصِرَةِ في الدُّنْيا - ويَكادُ يَرى سَلاسِلَ وأَغْلالَ وحِبالَ العَذابِ، تُقيِّدُ وتوثِقُ بها مَلائكةُ العَذابِ أولئك الكُفَّارَ المُعذَّبين.

إنَّ هذا الدَّرسَ الثَّالثَ من السُّورةِ يَرْتَقي بالقارئِ المُتَدبِّرِ إلى أَعْلى دَرَجاتِ التأَثُّرِ والانْفِعال، والاتعاظِ والاعتبار، بعدَ أَنْ يُشاهِدَ بخيالِه ما يُشاهِد، ويَسْمَعُ بخيالِه ما يَسمع، ويرى نهاية الطُّغاةِ الجبابرةِ المفسدين في نارِ جَهَنَّم.



٨ ـ خاتمة السُّورة تحقق هدفها:

وبينما القارئُ في قِمَّةِ تَألُّقِه وتأَثُّرِه وانفعالِه، وهو يعيشُ مع مشاهِدِ السُّورة؛ تأتي خاتِمةُ السورَة، في وَقْتِها المناسِب، لِتُقرِّر في كِيانِ القارئ هَدَفَ السّورَةِ ومَقْصِدَها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۞ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

النفسُ المطمئنةُ التي تستحقُّ هذا التكريمَ من الله، هي النفسُ المؤمنةُ الصَّالحَة، ذاتُ العقْلِ الواعي الكَبير، الذي أَحْسَنَ فَهْمَ رحلةِ الحياة، وَوَظَّفَها عِبادَةً وطاعَةً لله.

هذه النَّفسُ المطمئنَّةُ، التي أَقْسَمَ اللهُ لَها في أَولِ السورَةِ بالفَجْر واللَّيالي العَشْرِ والشَّفعِ والوَتْر. وهي في مقابِلِ النَّفسِ القلقَةِ المضطربة، المتهالكةِ على الدُّنيا وأموالِها ومَتاعِها، النَّفسِ الطَّاغيةِ المُفْسِدَة، التي تكلَّمَتْ عنها آياتُ الدَّرسَيْن الأَوَّل والثَّاني.

يُخاطِبُ اللهُ هذه النَّفسَ المطمئنَّةَ مُكرِّمًا لها، ويَقولُ لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۞ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٨ ـ ٣٠].

ويُصاحِبُ القارئُ ـ بخَيالِه ومشاعِرِه، وقَلْبِه وكيانِه ـ هذه النَّفسَ المطمئنَّة، ويَسمعُ عِبارةَ التكريمِ لها، ويُشاركُها حَفْلَ الاستقبالِ الإِيماني، ويكونُ معها وهي تَنالُ دَرَجَةَ الرِّضا، فتكونُ راضيةً عند الله، ويَرْضى اللهُ عنها، ويجعَلُها مُكَرَّمَةً مرضِيَّة، ويَسْعَدُ مع هذهِ النَّفسِ المؤمنةِ المطمئِنَّة، وهي تدخُلُ ضمنَ عبادِ اللهِ الصَّالحينَ الفائزين، وتشاركُهم حَفْلَ الحَفاوَةِ والتَّكريم، كما يَسْعَدُ معَ هذه النفس وهي تَدْخُلُ جَنَّةَ الله، وتنعمُ فيها بالنَّعيم المُقيم.

وهكـــذا يَعيشُ القارئُ حيـــاةً مباركَـــةً متأَثِّرةً حَيَّةً مع هذه السُّـــورةِ القَصيرة، فهي لا تزيدُ على صَفْحَةٍ من صَفحـــاتِ المُصحف، ويَقْرَؤُها في دقيقتَيْن أَو ثَـــلاث، لكنَّه يَقفُ معها على هـــذه المعاني والحقائِق، والقواعِدِ والأُسُـــس، والدُّروسِ والعِبَرِ، والصُّورِ والمشـــاهدِ، والظِّلال والأَجواء، والإيحاءات والإشارات.

إنَّ ســـورَةَ الفَجْرِ تأخُذُ القارئَ معها إلى فجرِ اليـــوم وغُروبِه، ولَيلِه ونَهارِه، كما تَدعو القارئ إلى الارتحالِ معها في تاريخِ البشـــريَّة، ليقومَ معهـــا بجولةٍ علميَّةٍ تربويَّةٍ فـــي هذا التاريخ، فتُريه نمـــاذجَ من بداياتِ تاريخِ الإنســـان، نَموذجِ عادٍ، وثَمودَ، وفرعونَ، ومـــا كان قَبلها وأَثناءَها وبعدَها من نماذج.

ثم تَنتقلُ به السُّورَةُ إلى جولَةٍ وسياحَةٍ ورحلَةٍ في واقعِ البشريةِ ـ في الدَّرس الثَّاني ـ فتُريهِ حقيقةَ بَشَرٍ، وأَشْخاصٍ، وأُناسٍ يَعيشونَ معه.

ثم تَنتقلُ به إلى جولةٍ في قادِمِ ومستقبلِ حَياةِ البشريَّة، تلك الحياةُ التي تكونُ يومَ القيامةِ، حيثُ يَرى فيها النِّهايةَ الخاسِـــرةَ للكُفَّارِ الطُّغاةِ المُفْسدين.

وتأْخُذُ هذه السُّورةُ بيدِ هذا القارئ، وتُدْخِلُه الجَنَّة في عِدادِ عبادِ الله الصَّالحين، وبذلك تختُم رحلةَ المؤمنِ التي قَطَعَها، ما بينَ وِلادَتِه على وَجْهِ هذه الأرض، إلى حينِ رُجوعِه إلى ربِّه، ودخولِه جَنَّتَهُ مُنَعَّمًا فيها.

وما أَنْ توقِفَ السُّـــورَةُ القارئ في الجنة، حتى تتركَه هناك ـ بخَيالِه وحِسِّـــه ومَشـــاعِرِه وكِيانِه وانفعالاتِه ـ وتُنهي السُّورَةُ سِـــياقَها، وتوقِفُ

عَرْضَها، وتَنْتَهي آياتُها هذه النِّهايَةَ التَّربويَّة المقصودَة، التي تُحَقِّقُ هَدَفَ السُّورة.

وَقَفْنا وقفةً تحليليةً مع سورةِ الفَجْر ـ بإيجازٍ واختصارٍ ـ لِنُقَدِّمَ مِثالًا عمليًّا على ما نعتقدُه من نعمةِ الحياةِ في ظـلالِ القرآن؛ ليتأَكَّدَ القارئُ من أَنَّ: «الحَياةَ في ظِلالِ القــرآنِ نِعْمةٌ، نعمةٌ لا يَعْرِفُهـا إِلَّا مَنْ ذاقَها، نعمةٌ تَرفَعُ العُمُرَ، وتُبارِكُه، وتُزَكِّيه».

* * *

تاسعًا

من فضائل القرآن



• أَحاديثُ صحيحةٌ في فضائل القرآن:

خَيْرُ مَنْ يُدْرِكَ فَضْلَ القرآن، رسولُ اللهِ ﷺ، الذي أَنزلَ اللهُ عليه القرآنَ، وعَرَّفَه بفَضْلِه، وقد أَخْبَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ عن فَضْلِ القرآن، وفَضائِلِ سُورٍ وآياتٍ مخصوصَةٍ منه، وعن فَضْلِ تَعَلُّمِه، وفَضْلِ تلاوَتِه. وأَخْرَجَتْ كُتُبُ الصِّحاحِ والسُّنَنِ طائفةً من الأَحاديث في ذلك.

من هذه الأَحاديث:

١ ـ روى البُخاريُّ: عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «**ما مِنَ الأَنبياءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَر، وإِنَّما كان الذي أُوتيتُه وَحْيًا أَوْحاهُ اللهُ إِلَيَّ، فأَرجو أَنْ أَكونَ أَكثرَهم تابِعًا يومَ القِيامَة**»[1].

٢ ـ روى البخاريُّ: عن أَبي عبدِ الرحمن السُّلَمِيِّ، عن عثمانَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ، قال: «**خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ، وعَلَّمَه**»[2].

---

(١) رواه البخاريُّ: في كتابِ فضائِلِ القرآن، بابُ كيفَ نزولُ الوحي، حديثُ رقم (٤٦٩٦). ومسلم: كتابُ الإِيمان، بابُ وُجُوبِ الإِيمانِ بنبوةِ محمدٍ ﷺ، حديث رقم (١٥٢).

(٢) رواه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيرُكم مَنْ تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَه، حديث رقم (٤٧٣٩).

وأَقْرَأَ أَبو عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيُّ في إِمْرَةِ عثمان، حتى كانَ الحَجَّاج، وقالَ: «ذَاكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا».

وإذا كانَ أَبو عبدِ الرحمنِ السُّـلَمِيُّ قد قَعَدَ يُقْرِئُ القرآنَ من خلافةِ عثمان حتى وِلايَةِ الحَجَّاج بنِ يوسُـفَ الثَّقفِيِّ، فقد قـامَ بتَعْليمِ القرآنِ أَكْثَرَ من خَمسينَ سَـنَة، رغبةً منه في نَيْلِ هذا الفضلِ والخير، رحمهُ اللهُ ورَضيَ عنه.

٣ - روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن أَبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، قالَ: بَيْنَما كانَ أُسَـيْدُ بنُ حُضَيْرٍ يَقْرَأُ من اللَّيلِ في مِرْبَدِهِ سـورَةَ البَقرة، وفَرَسُـه مربوطَةٌ عنـدَه، إذْ جالَت الفَرَسُ، فسَـكَتَ، فَسَـكَتَتْ، فَقَـرَأَ، فجالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ، فَسَكَتَتْ، ثم قَرَأَ، فجالَتِ الفَرَسُ، فانْصَرَفَ. وكانَ ابنُه يَحْيى قَرِيبًا مِنْهَا، فأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ.

قالَ أُسَـيْدٌ: فقمتُ إِليها، فـإِذا مِثْلُ الظُّلَّة فوقَ رَأْسـي، فيها أَمْثالُ السُّـرُج، عَرَجَتْ في الجَوِّ حَتى ما أَراها. فغَدَوْتُ على رسول الله ﷺ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! بينما أَنا البارحَةَ من جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرأُ في مِرْبَدي، إذ جالَتْ فرسي، فقالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: «اِقْرَأْ ابنَ حُضَيْر» قالَ: فَقَرَأْتُ، ثم جالَتْ. فقالَ: «اِقْرَأْ ابنَ حُضَيْر» قال: فَقَرَأْتُ، ثم جالَتْ. فقال: «اِقْرَأْ ابن حُضَيْر» قـال: فَقَرَأْتُ، ثم جالَـتْ. فقال: «اِقْرَأْ ابـن حُضَيْر» قال: فانصرفْتُ. فأَشـفقْتُ يا رسـولَ الله ﷺ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وكان قَرِيبًا منها. فرفَعْتُ رَأْسـي إِلى السَّـماءِ، فإذا مِثْلُ الظُّلَّة، فيها أمثـالُ المَصَابيح، فَخَرَجَتْ حتى لا أَراها.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وتَدْري ما ذاك؟» قلْتُ: لا.

قال: «تلكَ الملائكةُ، دَنَتْ لِصَوْتِك، كانتْ تستمعُ لك، ولو قَرأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ الناسُ إِليها، لا تَتَوارى منهم!»[١].

٤ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن أَبي موسى الأَشعريِّ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يَقْرَأُ القرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيْحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا طَيِّبٌ. ومَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذي لَا يَقْرَأُ القُرآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ. ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذي يَقرأُ القرآنَ مَثَلُ الرَّيحانَةِ، رِيْحُها طَيِّبٌ وَطَعْمُها مُرٌّ. ومَثَلُ المُنافِقِ الَّذي لَا يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَة، لَيْسَ لَهَا رِيْحٌ وطَعْمُهَا مُرٌّ»[٢].

٥ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن عائشةَ رضي الله عنها، قالَتْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الَّذي يَقْرَأُ القُرآنَ، وهو حافِظٌ لَهُ، مَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، ومثَلُ الذي يَقْرأُ القُرْآنَ، ويَتَتَعْتَعُ فيهِ، ويَتَعاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ؛ فلَهُ أَجْرَانِ»[٣].

٦ ـ روى البخاريُّ: عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا في اثْنَتَيْن: رَجُلٌ عَلَّمَه اللهُ القُرآنَ، فَهُوَ يَتْلوْهُ آنَاءَ اللَّيلِ وَآنَاءَ النَّهارَ، فسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ

(١) رواهُ البخاريُّ في كتابِ فضائِلِ القرآن، باب نُزولِ السكينةِ والملائكةِ عند قراءةِ القرآن، حديث رقم (٤٧٣٠). ورواهُ مسلم في كتاب صلاة المسافرين ومقصّرها، بابُ نزولِ السَّكينةِ عند قراءةِ القرآن، حديث رقم (٧٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب فضائلِ القرآن، بابُ فَضْلِ القرآنِ على سائِرِ الكلامِ، حديث رقم (٤٧٣٢). ورواه مسلمٌ في كتابِ صَلاةِ المسافرين، بابُ فضيلَةِ حافِظِ القرآن، حديث رقم (٧٩٧).

(٣) رواهُ البخاري في كتابِ التَّفسير، بابُ تَفْسيرِ سورةِ عَبَس، حديث رقم (٤٦٥٣). ورواه مسلم في كتابِ صَلاةِ المسافرين، بابُ فَضْلِ المَاهِرِ بالقرآن، حديث رقم (٧٩٨).

مِثْلَ ما يَعْمَلُ. ورجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا، فهو يُهْلِكُه في الحَقّ، فقالَ رجُلٌ: لَيْتَني أُوتِيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»[١].

٧ - روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن أَبي هريرةَ ﵁، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أَذِنَ اللهُ لشَيْءٍ ما أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنّى بِالقُرْآنِ»[٢].

قالَ أَبو هريرة: يَتَغَنَّى بالْقُرآنِ: يَجْهَرُ بِهِ.

وقال سفيان: يَتَغَنّى بالقُرآنِ: يَسْتَغْنِي به.

٨ - روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ﵄، عن رسولِ الله ﷺ، قال: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعْقَلَةِ، إِنْ عاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَها، وإِنْ أَطْلَقَها ذَهَبَتْ»[٣].

وزادَ مُسْلِمٌ: «وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ القُرآنِ فَقَرَأَه باللَّيلِ والنَّهارِ ذَكَرَهُ، وإِذَا لَمْ يَقُمْ به نَسِيَه».

٩ - روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن أَبي موسى الأشعريِّ ﵁، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «تَعاهَدُوا القُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[٤].

---

(١) رواه البخاري في كتابِ فضائلِ القرآن، بابُ اغتباطِ صاحِبِ القرآن، حديث رقم (٤٧٣٧).

(٢) رواه البخاريُّ في كتابِ فضائلِ القرآن، بابُ مَنْ لم يَتَغَنَّ بالقرآن، حديث رقم (٤٧٣٥/٤٧٣٦). ورواهُ مسلمٌ في كتابِ صلاةِ المسافرين، بابُ استحبابِ تَحسينِ الصَّوتِ بالقُرآن، حديث رقم (٧٩٢).

(٣) رواه البخاريُّ في كتابِ فضائلِ القرآن، بابُ استذكارِ القرآن وتَعاهُدِه، حديث رقم (٤٧٤٣). ورواهُ مسلمٌ في كتابِ صَلاةِ المُسافرين، بابُ الأَمْرِ بتعاهُدِ القرآن، حديث رقم (٧٨٩).

(٤) رواه البخاريُّ في كتابِ فضائِلِ القرآن، باب استذكارِ القرآن، حديث رقم (٤٧٤٣). ومسلمٌ في كتابِ صلاةِ المسافرين، باب الأَمْرِ بتَعَهُّدِ القرآن، حديث رقم (٧٩٢).

١٠ - روى البخاريُّ ومسلمٌ: عن جُنْدُبِ بن عبدِ الله ﵁، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «**اِقْرَؤوا القُرآنَ ما ائْتَلَفَتْ عليه قُلُوبُكُم، فإذا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ**»[١].

ومَعْنى الحديث: اِقْرَؤوا القُرْآنَ مَا دُمْتُمْ نَشِطِيْنَ، وَقُلُوبُكُم حَاضِرَة، وَخَواطِرُكُم مُجْتَمِعَة، فَإذَا اضْطَربَ فَهْمُكُم لِمَعَانِيهِ بِسَبَبِ المَلَلِ، فاتْركوا القِرَاءَة، حتَّى يَذْهَبَ عَنْكُم مَا أَنْتُمْ فِيْهِ[٢].

١١ - روى مسلمٌ: عن أَبي هريرةَ ﵁، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوم القِيَامَةِ. ومَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ. ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ. واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيْهِ. ومَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ بِهِ طَرِيْقًا إِلَى الجَنَّةِ.**

وما اجْتَمَعَ قومٌ في بيتٍ من بُيوتِ اللهِ، يَتْلُوْنَ كِتابَ اللهِ، ويَتدارَسُوْنَهُ بَيْنَهم؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِيْنَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحمَةُ، وحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فِيْمَنْ عِنْدَهُ.

وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٣].

---

(١) رواه البخاريُّ في كتابِ فضائلِ القرآن، باب اقرَؤوا القُرآن ما ائتلفَتْ عليه قُلُوبُكُمْ، حديث رقم (٤٧٧٤). ورواهُ مسلمٌ في كتاب العلم، باب النَّهيِ عن اتِّباعِ مُتَشابِهِ القرآن، حديث رقم (٢٦٦٧).

(٢) تعليقُ الدكتور مصطفى البغا على هذا الحديثِ، في طبعَتِه لصحيحِ البخاري: ١٩٢٩/٤ حاشية.

(٣) رواه مسلمٌ في كتاب الذكر والدعاء، باب فضلُ الاجْتماعِ على تِلاوةِ القرآن، حديث رقم (٢٦٩٩).

١٢ - روى مسلمٌ: عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**أَيُحِبُّ أَحَدُكُم إذا رَجَعَ إلى أَهْلِه أَنْ يَجِدَ فيه ثَلاثَ خَلِفاتٍ**[١] **عِظامٍ سِمانٍ؟**» قُلْنا: نَعَمْ. قال: «**فَثَلاثُ آياتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفاتٍ عِظامٍ سِمَانٍ**»[٢].

١٣ - روى مسلمٌ: عن عُقْبَةَ بن عامرٍ رضي الله عنه، قال: خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ، وَنَحْنُ في الصُّفَّةِ[٣]، فقال: «**أَيُّكُم يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يومٍ إِلَى بَطْحَان أَوْ إِلى العَقِيْقِ**[٤]**، فيأتيَ منهُ بناقتَيْنِ كوماوَيْنِ**[٥]**، في غيرِ إِثْمٍ وَلَا قَطيعَةِ رَحِمٍ؟**» فقُلْنا: يَا رسولَ اللهِ! نُحِبُّ ذلك. قال: «**أَفَلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ، فَيَعْلَم أَوْ يَقْرَأ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، ومِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**»[٦].

١٤ - روى مسلمٌ: عن أَبي أُمامَةَ الباهِلِيِّ رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: «**اِقْرَؤُوا القُرآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ شَفِيْعًا لأَصْحَابِهِ. اِقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وآلَ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيانَ يَوْمَ القِيامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ**[٧]**، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صوافّ، تُحاجّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اِقْرَؤُوا سُوْرَةَ البَقَرَة، فَإِنَّ أَخْذَها بَرَكَة، وتَرْكَها حَسْرَة، ولا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ**»[٨].

---

(١) **الخلِفاتُ**: الإِبِلُ الحوامِلُ التي اقْتَرَبَتْ من الوَضْع.

(٢) رواه مسلمٌ في كتاب صلاةِ المسافرين، باب فضل قِراءَةِ القرآن، حديث رقم (٨٠٢).

(٣) **الصُّفَّة**: مكانٌ مرتفعٌ في المسجدِ النبويِّ، كان بعضُ الصحابةِ يَجْلِسونَ فيه.

(٤) **بَطْحان والعَقيق**: مَكانانِ قَريبانِ من المدينة.

(٥) **النَّاقَتان الكَوْماوان**: العَظيمَتان السَّمينَتان.

(٦) رواه مسلمٌ في كتابِ صلاةِ المهاجرين، باب فضلِ قراءةِ القرآن، حديث رقم (٨٠٣).

(٧) **غيايَتان**: بمعْنى الغمامَتَيْن أَو السَّحابَتَيْن.

(٨) رواه مسلمٌ في كتابِ صَلاةِ المسافرين، باب فضلِ قراءةِ القُرآن، حديث رقم (٨٠٤).

١٥ ـ روى مسلمٌ: عن عامِرِ بن واثِلَة: أَنَّ نافِعَ بنَ عبدِ الحارث لَقِيَ عُمَرَ بعُسْفَان، وكان عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ على مَكَّة، فقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أَهْلِ الوَادي؟ فقالَ: ابنُ أَبْزى. قال: وَمَن ابنُ أَبْزى؟ قال: مَولى من مَواليِنا. قال: اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِم مَوْلًى؟ قال: إنَّه قارِئٌ لِكِتَابِ الله ﷻ، وإِنَّهُ عالِمٌ بالفَرائِضِ.

قالَ عمر: أَما إِنَّ نبيَّكم ﷺ قالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوامًا، ويَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[1].

١٦ ـ روى أَبو داود والترمذيُّ: عن عبدِ الله بنِ عَمْرو ﵄، عن رسول الله ﷺ، قالَ: يُقالُ لصاحِبِ القُرآنِ: «**اِقْرَأْ وارْقَ، ورَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي دَارِ الدُّنيا، فَإِنَّ مَنْزِلَك عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[2].

١٧ ـ وروى الترمذيُّ: عن عبدِ الله بنِ عباس ﵄، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «**إِنَّ الَّذي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ كَالبَيْتِ الخَرِبِ**»[3].

هذه سَبْعَةَ عَشَرَ حَديثًا صحيحًا، عن رسولِ اللهِ ﷺ، من أَحاديث كثيرة، تُبيِّنُ فَضائِلَ القُرآن الكريم، وتَدْعونا إِلى أَنْ نُقْبِلَ عليهِ بصِدْقٍ وهِمَّةٍ والتزامٍ.

---

(١) رواه مسلم في كتابِ صَلاةِ المسافرين، بابُ فَضْلِ مَنْ يَقومُ بالقُرآن، حديث رقم (٨١٧).

(٢) رواه أبو داود في كتابِ الصَّلاة، بابُ استحبابِ التَّرتيلِ في القِراءَة، حديث رقم (١٤٦٤). ورواه الترمذي في كتابِ فضائِلِ القرآن، باب (١٨)، حديث رقم (٢٩١٤).

(٣) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب (١٨)، حديث رقم (٢٩١٣).

• أَقوالٌ للعُلماءِ في فَضائِل القُرآن:

كَتَبَ العلماءُ السَّابقونَ كتُبًا كثيرةً في فضائِلِ القرآن، وجَمعوا فيها أَحاديثَ وأَقوالًا للصَّحابَةِ والتّابعينَ وأَتْباعِهم، في فَضْلِ هذا القرآن، والحَثِّ على تعَلُّمِه وحِفْظِه وتِلاوَتِه وتَطبيقِه، وتَرغيبِ المُسلمينَ في الإِقبالِ عليه.

وأَوَّلُ مَنْ أَلَّفَ كتابًا في فضائِلِ القرآن هو الإمامُ أَبو عبيد القاسِمُ بنُ سَلام، المولودُ في هَراة في (١٥٦هـ)، والمتوفّى في مكَّة في (٢٢٤هـ)، حيثُ أَلَّفَ كِتابًا سَمّاهُ: «فضائِل القرآن»(١).

ومِمَّن أَلَّفَ بعدَ أبي عبيدٍ في فضائِلِ القرآن: خَلَفُ بنُ هِشام، وهِشامُ بنُ عَمَّار، ومحمدُ بنُ أَيوب الضِّرّيس، والفِرْيابِيُّ، والنَّسائيُّ، وابنُ كثيرٍ، وغيرُهم، وقد طُبِعَتْ مُؤَلَّفاتُ أَبي عُبيدٍ، والفِرْيابيّ، والنَّسائِيِّ، وابن كثيرٍ.

ونظرًا لأَهميةِ كتابِ أَبي عبيد في ذاتِه، ولسَبْقِه الزَّمَنِيِّ لباقي الكُتُب، فإِنَّنا سنختارُ منه أَقوالًا لبعضِ الصَّحابةِ والتَّابعين وأَتْباعِ التَّابعين، في فَضْلِ القرآنِ وتِلاوتِه، وحِفْظِه، وتدبُّرِه.

١ ـ **قالَ عبدُ اللهِ بن مسعود** رضي الله عنه: **لَا يَسْأَلُ عَبْدٌ عَنْ نَفْسِه إِلَّا القُرْآنَ، فإِنْ كانَ يُحِبُّ القُرآنَ، فإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُوْلَه**(٢).

---

(١) وقد حَقَّقَ كتابَ «فضائِل القرآن» لأَبي عُبَيْد القاسِم بن سَلام، الأستاذُ وهبي سليمان غاوجي الأَلباني، وظهرَتْ طبعَتُه الأُولى عام ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

(٢) فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص ٢١ ـ ٢٢.

٢ ـ وقالَ قَتادَة: ما جالَسَ أَحَدٌ القُرآنَ إِلَّا فارَقَـه بزيادَةٍ أَو نُقْصانٍ؛ لأَنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢][1].

٣ ـ وقالَ عبدِ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: عليكم بالشِّفاءَيْن: العَسَلِ والقرآن[2].

٤ ـ وقيلَ لعبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه: إِنَّا نَراكَ تُقَلِّلُ الصَّومَ! فقال: إِنَّ الصَّومَ يُضْعِفُني عَن قِراءَةِ القُرآن، وقِراءَةُ القُرآنِ أَحَبُّ إِلَيَّ منه.

٥ ـ وعن عبدِ الرحمن بنِ الأَسود، عن أَبيه، قالَ: أَصَبْتُ أَنا وعلقمةُ صَحيفَـةً، فانْطَلَقْنا إِلى ابنِ مسعودٍ بها، وقد زالَتِ الشَّمسُ أَو كادَتْ تَزولُ، فجلَسْنا بالبَاب، ثم قالَ للجارِيَة: انْظُري مَنْ بالبَاب. فقالَتْ: علقمَةُ والأَسْوَدُ. فقال: ائْذَني لَهُمَا. فَدَخلْنا فقال: كَأَنَّكُما قد أَطَلْتُمَا الجُلوسَ؟ قُلْنا: أَجَل. قال: فَمَا مَنَعَكُما أَنْ تَسْتَأْذِنا؟ قُلْنا: خَشينَا أَنْ تَكونَ نائِمًا. قال: ما أُحِبُّ أَنْ تَظُنَّا بِي هَذَا! إِنَّ هَذِه السَّاعَةَ كُنَّا نَقِيسُها بصَلاةِ اللَّيْل.

قُلْنا: هذه صحيفَةٌ فيها حَديثٌ حَسَنٌ. فقال: هاتِها. ثُمَّ قالَ: يا خادِم! هاتي الطِّسْت، فاسْكُبي فيها ماءً. فجعلَ يَمْحُوها بيدِه وهو يقرأُ قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣].

فقُلْنا: أُنظر فيهـا، فإِنَّ فيها حَديثًا عَجَبًا. فجعـلَ يَمحوه، ويقولُ: إِنَّ هَذِه القُلوبَ أَوْعيَة، فَأَشْغِلوها بالقُرآن، ولا تُشْغِلوها بغيرِه[3].

---

(١) فضائل القرآن، ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١.

٦ ـ وجاءَ رَجُلٌ إلى عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ، فقالَ: أَوْصِني. فقالَ: إذا سمعْتَ اللهَ يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك؛ فإنه خيرٌ يَأْمُرُ بهِ، أَو شَرٌّ يَنْهى عنه.

٧ ـ وقالَ خَبّابُ بنُ الأَرَتِّ ﷺ لجارِه فَرْوَةَ بنِ نوفَل: تَقَرَّبْ إلى اللهِ ما اسْتطَعْتَ؛ فإِنَّكَ لَنْ تَتقرَّبَ إلَيْهِ بشَيْءٍ هُوَ أَحبُّ إلَيْهِ مِنْ كَلامِهِ[١].

٨ ـ وقالَ أَبو موسى الأَشعريُّ ﷺ: إنَّ هَذا القرآنَ كائِنٌ لَكُم ذِكْرًا، وكائِنٌ لَكُم أَجْرًا، وكَائِنٌ عَلَيْكُم وِزْرًا؛ فاتَّبِعوا القُرْآنَ، ولا يَتْبعَنَّكُم القُرآنُ؛ فإنَّه مَنْ يَتْبَعِ القرآنَ يَهْبِط به القُرآنُ علَى رِياضِ الجَنَّةِ، ومَنْ يَتْبَعهُ القُرآنُ، يدفعه في قَفاه، حتَّى يَقْذِفَه في نارِ جَهَّنَم[٢].

٩ ـ وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ: إذَا أَرَدْتُمُ العِلْمَ فأَثِيْروا القُرآنَ؛ فإنَّ فِيْهِ خَبَرَ الأَوَّلِيْنِ وَالآخرِينَ[٣].

١٠ ـ وَقالَ عمرُو بنُ مُرَّة: إنّي لأَمُرُّ بالمَثَلِ من كتابِ اللهِ ولا أَعْرِفُه، فأَغْتَمُّ لذلك؛ لأَنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فأتهم عقلي[٤].

١١ ـ وقالَ مجاهد: اسْتَفْرَغَ القرآنُ عِلْمي كُلَّه[٥].

١٢ ـ وقالَ عبدُ اللهِ بنُ بُرَيْدَة: شَتَمَ رَجُلٌ ابنَ عَبَّاسٍ يَوْمًا، فقالَ له: أَنْتَ تَشْتُمُني وفيَّ ثَلَاثُ خِصالٍ: أَسْمَعُ بالحَاكِمِ من حُكَّامِ المُسلمين

(١) فضائل القرآن، ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٢.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق، ص ٤٤.

يَعدِل، فأَفْرَحُ، وَأَنا لَا أَتَقَاضَى إِليهِ أَبَدًا. وأَسْمَعُ بالغَيْثِ يُصيبُ البَلَدَ مِنْ بُلدانِ المُسلمينَ، فأفرح، وَمَا لِي مِنْ مَاشِيَةٍ سَائِحَةٍ. وآتِي عَلَى الآيَةِ مِن كِتابِ اللهِ، فأَوَدُّ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُم يَعلمُونَ مِنْهَا مَا أَعْلَم[1].

١٣ ـ وكانَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ إذَا اجتمعَ إليه إِخْوانُه، نَشَروا المُصحفَ فقَرؤُوا فيه، ويُفَسِّرُ ابنُ مسعودٍ لَهُم[2].

١٤ ـ وقالَ عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ: صَلَّى بنا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ صَلاةَ الفَجْر، فافتتحَ سورَةَ يوسُف، فقَرَأَها، فلما انْتَهى إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] بَكى، حتَّى سُمِعَ نَشيجُه من وراءِ الصُّفوفِ[3].

١٥ ـ وسُئِلَ مجاهِدٌ عن رجُلٍ قَرَأَ البقرةَ وآلَ عمران، ورجُلٌ قَرَأَ البقرةَ فَقَطَ، وقيامُهما واحدٌ، وركوعُهمَا وسُجُودُهُمَا وجلوسُهما واحدٌ، أيُّهما أَفْضَلُ؟ فقال: الَّذي قَرَأَ البَقرةَ؛ لأَنَّ اللهُ يقول: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦][4].

١٦ ـ قال طاوُس: أَحْسَنُ النَّاسِ صَوْتًا بالقُرآنِ أَخْشَاهُم للهِ[5].

١٧ ـ وقالَ رَجُلٌ لعبدِ اللهِ بنِ عُمَر ﷺ: قَرأْتُ القُرآنَ في ليلَةٍ ـ أَو في رَكْعةٍ ـ فقالَ ابنُ عمر: أَفَعَلْتُمُوهَا؟ لَوْ شَاءَ اللهُ لأَنزلَهُ جُمْلةً واحدةً، وإِنَّما فصَّلَه، لِتُعطى كُلُّ سُورَةٍ حَظَّها من الرُّكوعِ والسُّجُود[6].

---

(١) فضائل القرآن، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٦) المصدر السابق، ص ٨٦.

١٨ ـ وقالَ معاذُ بن جَبَلٍ لأَبي موسى الأَشعَريِّ رضي الله عنهما: كيف تَقْرَأُ القرآنَ؟ فقال: أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقَ اللَّقوح، فكيفَ تَقْرَأُ أَنْتَ؟ قال: أَنامُ أَوَّلَ اللَّيلِ، فأَقومُ وقَد قَضَيْتُ كَراي، فأقرأُ ما كَتَبَ اللهُ لِي، وبذلك أَحْتَسِبُ نَوْمَتي كما أَحْتَسِبُ قَوْمَتي[1].

أَيْ: إنَّ أَبا موسى يَجمعُ القرآنَ جَمْعًا، كما يُجمَعُ الحَليبُ في ضِرْعِ النَّاقَة، ثُمَّ يُحْلَبُ. أَمَا مُعاذُ بنُ جَبَل فإنه يَنامُ جُزْءًا مِنَ اللَّيل، ويَقْرَأُ القُرآنَ في الجُزْءِ الآخَرِ، فيجعلُ نَومَه وقيامَهُ احْتِسابًا للهِ.

١٩ ـ وكانَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما إذا قَرَأَ القُرآنَ أَمْسَكَ عَنِ الكَلامِ، حتَّى يفرغَ مما يُريدُ أَنْ يَقْرَأَه[2].

٢٠ ـ وقالَ ابنُ سيرين: ذَهَبَ عُمَرُ بنُ الخَطابِ إِلى الغائِط، ولمَّا عادَ منه قَرَأَ القُرآنَ ولم يَتَوَضَّأْ، فقالَ له أَبو مريمَ الحَنَفِيّ: أَتَقْرَأُ ـ وقد أَحْدَثْتَ ـ بدونِ وُضوءٍ؟ فقالَ له عمر: مَنْ أَفتاكَ بهذا؟! مُسَيْلَمَة؟![3].

٢١ ـ وأَقْرَأَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَجُلًا، بعدَما أَحْدَثَ من غائِطٍ أَو بَوْلٍ[4].

٢٢ ـ وقالَ علقمةُ والأَسْوَدُ: أَتَيْنا سَلْمانَ الفارِسِيَّ، فَقَرأَ وقد خَرَجَ منَ الغائِطِ والبَوْلِ[5].

---

(١) فضائل القرآن، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٥) المصدر السابق نفسه.

٢٣ ـ وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَيْر: كانَ ابنُ عَبَّاس وابنُ عمر ﵃ يَقْرَأان أَجْزاءَهُمَا، بعدَما يَخْرُجانِ منَ الخَلاءِ، وقَبْلَ الوُضوءِ(١).

٢٤ ـ وعن حَمّاد بنِ أَبي سليمان، قالَ: سَأَلْتُ سعيدَ بنَ المُسَيّب: أَيَقْرَأُ الجُنُبُ القُرْآنَ؟ فقال: أَوَلَيْسَ القُرآنُ فِي جَوْفِهِ؟!(٢).

٢٥ ـ وأَمَرَ مُصْعَبُ بنُ الزُّبير عبدَ اللهِ بنَ مُغَفَّل أَنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ في شَهْرِ رَمَضانَ، فلمَّا كانَ يَوْمُ العيدِ، أَرسَلَ له بِحُلَّةٍ وخمسمئةِ دِرْهَم، فَرَدَّها ابنُ مُغَفَّل، وقالَ: ما كنتُ لآخُذَ على القُرآنِ أَجْرًا(٣).

٢٦ ـ وقالَ حذيفةُ بنُ اليَمان ﵁: أَقْرَأُ النَّاسِ للقُرآنِ مُنافِقٌ، يَقْرَؤُهُ، لا يَتْرُكُ منهُ واوًا وَلَا أَلِفًا، يَلْفِتُهُ بِلِسَانِهِ، كَمَا تَلْفِتُ البَقَرةُ العُشْبَ بلِسَانِهَا، ولكنَّهُ لا يُجاوِزُ تُرْقُوَتَهُ(٤).

٢٧ ـ وقالَ عبدُ اللهِ بن مسعودٍ ﵁: إِنَّ سُورَ: الإِسرَاء، والكَهف، ومريم، وطه، من العِتاقِ الأُوَلِ، وإِنَّهُنَّ من تِلادي(٥).

٢٨ ـ وقالَ ابنُ مسعودٍ أَيْضًا عن سُوَرِ الحواميم (وهي السورُ من غافِرِ إِلى الأَحْقاف): إِذا وَقَعْتُ في الحواميمِ، وَقَعْتُ في رَوْضاتٍ دَمِثاتٍ، أَتأَنَّقُ فِيْهِنَّ(٦).

---

(١) فضائل القرآن، ص ٩٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٠٨.
(٤) المصدر السابق، ص ١١٠.
(٥) المصدر السابق، ص ١٣٣.
(٦) المصدر السابق، ص ١٣٧.

هذه أَقوالٌ ذاتُ دِلالــة أَطْلَقَها أَهْلُ القرآنِ مــن الصَّحابةِ والتَّابِعين وتابعيهم، حولَ القُرآنِ وفَضائِله.

ونَدعو القــارئَ الكريمَ إِلــى أَنْ يَقِــفَ أَمامَها طَويــلًا، وأَنْ يَعيَها ويتدبَّرَها، وَأَنْ يُطبقَها على نفسِــه، ليستفيدَ هو من القرآن، ويَقِفَ عمليًا على فضائِلِ القرآن.

* * *

عاشرًا

من صفات حامل القرآن



المؤمنُ الصَّادقُ عندمـا يتعامَلُ مع القرآن تَعامُـلًا صادِقًا، ويَحملُه حَمْلًا قويًّا، يَتَّصِف بصِفـاتٍ إيجابيَّةٍ، ويتخلَّقُ بأَخْلاقٍ سـامِيَةٍ، فكريَّةٍ وسـلوكيَّةٍ وحركيَّةٍ، ويكونُ هو فـي صفاتِه وأخلاقِه وسُـلوكِه وحركتِه نموذجًا عَمَليًّا متحركًا لتوجيهاتِ القُـرآن وأَحكامِه، فكأَنَّه قُرآنٌ متحركٌ يَدِبُّ على الأَرْض.

وقد أَشارَتْ آياتُ القُرآنِ إلى بعضِ آثارِ القُرآنِ العمليةِ الإيجابية، على مَن يَتفاعَلُ معهُ، ويحملُهُ ويتحرَّكُ بهِ، وذَكَرَتْ بعضَ صِفاتِه وأَخْلاقِه.

• آيات في أثر القرآن:

القُرآنُ له أَثَرٌ عَظيمٌ؛ لأَنه كَلامُ اللهِ العظيم.

وهناك آياتٌ تُخبرُ عن أَثَرِ القُرآنِ على الجبالِ لو خاطَبَها اللهُ به.

وآياتٌ تُبيِّنُ أَثَرَ القرآنِ على القُلوبِ المؤمنةِ التي تحملُه.

أَمّا أَثَرُه على الجبـالِ والجوامِدِ فيما لو خاطَبَهـا اللهُ به، ففي قولِه تعالـى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ

ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

أَي: لَوْ أَنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يَكُوْنَ القُرآنُ هَكَذَا، وَأَنْ يكُونَ هَذَا أَثَرُهُ على الجوامِدِ لَفَعَل.

أَي: لو أرادَ اللهُ تَسْيِيرَ الجبالِ بالقُرآنِ لفَعَل، ولو أَرادَ اللهُ تَقْطِيعَ الأَرْضِ بالقرآنِ لفَعَل، ولو أرادَ اللهُ تَكليمَ الموتى بالقرآنِ لفعَل.

فهذا هو أَثَرُ القرآنِ على الجِبَالِ والأرضِ والمَوْتَى، فيما لو خاطَبَها اللهُ به، وكَلَّفها به، وأَمَرَها بتنفيذِ ما فيه.

ولكنَّ اللهَ الحكيمَ سُبحانَه ما أَرادَ ذلك، لَقَد شاءَ أَنْ يكونَ القرآنُ خِطابًا للبَشَرِ الأَحياءِ، ذَوي القُلوبِ والأَعصاب، والمشاعِرِ والأَحاسيس؛ فلِمَاذا لا يَتفاعَلونَ به؟! ولماذا لا يَسْعَدونَ معه؟!.

وأَخْبَرَنا اللهُ عن **أَثَرِ القرآنِ على الجَبَل** - فيما لو خاطَبَهُ به - في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

الجَبَلُ الجامِدُ يتأَثَّرُ بالقرآنِ لو أَنزلَه اللهُ عليه، فيتصَدَّعُ هذا الجبلُ من أَثَرِ القرآن، ويخشَعُ هذا الجبلُ من خشيةِ الله.

ولكنَّ اللهَ الحكيمَ ما شاءَ ذلك، إنما شاءَ إِنْزالَ القرآنِ على بَشَرٍ، وليس على جَبَلٍ، فأنزلَه على قَلْبِ سَيِّدِ الخَلْق، محمَّدٍ ﷺ، فَخَشَعَ قَلْبُ الرَّسولِ ﷺ، وتَأَثَّرَ بالقُرآن، وتَفاعَلَ معه.

وهذا القرآنُ خِطابٌ للإنسـان، فلماذا لا يَتأَثَّرُ كِيانُـهُ بهذا القرآن؟ ولماذا لا يَخْشَعُ قَلْبُه من خشيةِ اللهِ مُنَزِّل هذا القرآن؟!.

• آيات في صفات حامل القرآن:

حامِلُ القرآنِ: هو المؤمنُ الصادِق.

وقد وَرَدَتْ آياتٌ كثيرةٌ في بَيانِ صِفاتِ المؤمنينَ الإيجابيةِ الفاعِلَة، وليس مقصودُنـا أَنْ نجمعَها ونَعرضَها في هذا المقـام، إنما وَقَفْتُنا مع الآياتِ الصَّريحةِ في بَيانِ أَثَرِ القـرآنِ على صاحِبه، ونتائجِ تِلاوةِ القُرآنِ العمليةِ على صاحِبها:

١ ـ قـال تعالـى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمـر: ٢١ ـ ٢٣].

لقد بَدأت الآياتُ بذكْرِ الماءِ النَّازلِ من السَّماء، وتوزيعِهِ ينابيعَ في الأَرض، وما يَنتجُ عن هذه الينابيع من زَرْعٍ مختلفة أَلوانه.

وهناك شَبَهٌ وثيقٌ بينَ المَاءِ والقرآنِ، فالقرآنُ نازلٌ من عندِ الله، على قَلْبِ المؤمن، وعليـه أَنْ يَدَعَ هذا الغيـثَ القرآنيَّ ليَدْخـلَ في قلبِه،

ويتغلغلَ فيه، ويتوزَّعَ في حناياه، وتَشْـرَبَه شِعابُه، ليكونَ يَنابيعَ في هذا القلب، مِثْلَ الماءِ الذي صارَ ينابيعَ في الأَرض.

وكمـا أَنَّ الزرعَ مختلِـفَ الأَلْوان ناتِـجٌ عن يَنابيـعِ الماءِ في الأَرض، يَجِـبُ أَنْ تكونَ الأَعمـالُ الصَّالحةُ مختلفـةُ المجالاتِ والأَلوانِ والاتجاهات، زَرْعًا عمليًّا مُبارَكًا، ناتجًا عن الينابيعِ القرآنيةِ في قَلْبِ المؤمن.

والنّورُ من اللهِ يُبَدِّدُ الظَّلام، ويُنيرُ الأَرْضَ.

والقرآنُ نورٌ من عنـدِ اللهِ، يُنيرُ قَلْبَ المؤمن، ويُزيلُ ظَلامَ الشَّـكِّ والشُّـبهَةِ والشَّـهوةِ والهَوى، وعندما يَتَفاعَلُ المؤمنُ معه، فإنه ينشرحُ صَدْرُه، ويتَّسِعُ أُفُقُه، وتَستقيمُ حياتُه.

القُرآنُ كتابُ اللهِ هو أَحْسَنُ الحَديث، وقد جعلَه اللهُ كِتابًا مُتَشابِهًا في آياتِه، مثانـيَ في تِلاوَتِه، بحيثُ يَتْلوهُ المؤمـنُ بتَفاعُلٍ وتَأَثُّرٍ، ثم يَعودُ يَتْلوهُ من جَديدٍ، ويُثَنِّيهِ ويُكَرِّرُه، دون مَلَلٍ أَو سآمَة.

وعندما يَتلو المؤمنُ القُرآنَ بحُضورٍ وخُشـوعٍ، فإنَّه يَقْشَـعِرُّ جِلْدُه خَوْفًا منَ اللهِ، وتُصيبُه رَعْدَةٌ وقَشْعَريرَةٌ، ويَعيشُ تَأَثُّرًا وانْفِعالًا بما يَتْلوهُ، ثُمَّ يَلينُ قَلْبُـه، وتزولُ عنه قَسْـوَتُه، ويَلينُ جِلْدُه، وتَذهبُ قشـعريرَتُه، وتَنْتَهي هذه العملية.

وبعدَ ذلك يَقْطِفُ المؤمنُ ثِمارَ هذه العمليَّة، ويَعيشُ آثارَها، فيكونُ ذاكِرًا للهِ، مُهْتَدِيًا بهُدى الله، مُسْـتَنيرًا بنورِ اللهِ، سَعيدًا بالحياةِ في ظِلالِ كتابِ الله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٢ ـ قالَ تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٢].

من آثارِ القرآنِ على مَنْ يتلونَه، التي تذكُرُها هذه الآياتِ: أَنَّهم يُقيمونَ الصلاة، ويُنْفِقونَ ممَّا رزقَهم اللهُ سِرًّا وعلانيةً، وأَنَّهم سابقون بالخيرات، وأَنَّهم يَرجون ما عندَ اللهِ من الثَّواب.

• أخلاق أهل القرآن:

«أَخلاقُ أَهلِ القُرآن»: كتابٌ طيبٌ نافِع، أَلَّفه الإمامُ الحافظُ المحدِّثُ: أَبو بكر محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عبدِ الله الآجُرِّيُّ، المتوفَّى بمكةَ سنة (٣٦٠هـ) عن سِتٍّ وتِسعين سنة[1].

وأنقلُ من ذلك الكتابِ أَقوالًا للعلماءِ في أَخلاقِ أَهلِ القرآن، وصِفاتِ حامليه:

١ ـ قالَ **الحسنُ البصريُّ** رَحِمَهُ اللهُ: الْزَموا كِتابَ الله، وتَتَبَّعوا ما فيه من الأَمثال، وكونُوا فيه من أَهلِ البَصَر.

---

(١) وقد حَقَّقَ كتابَه الشيخُ: محمد عمرو بن عبد اللطيف، وطبَعَته دارُ الكتب العلمية ببيروت عام ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

ورحمَ اللهُ عَبدًا عرضَ نفسَه وعملَه على كتابِ الله، فإنْ وافقَ كتابَ الله، حَمَدَ اللهَ، وسأله الزيادَة، وإنْ خالفَ كتابَ الله، أَعتبَ نفسَه، ورجعَ من قريب[1].

٢ ـ وعن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، قال: مَـنْ جَمَعَ القرآنَ، فقد حَمَلَ أَمْـرًا عظيمًا، لقد أُدرِجَتِ النُّبـوةُ بين كتفَيْه إلَّا أَنـه لا يُوحى إليه، فلا يَنبغي لحامـلِ القرآن أنْ يغضـبَ مع مَنْ يغضَـبُ، ولا يَجهلَ مع مَنْ يَجْهلُ؛ لأَنَّ القرآنَ في جوفِه[2].

٣ ـ وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسـعودٍ رضي الله عنه: يَنبغي لحامِلِ القرآنِ أَنْ يُعْرَفَ بليلِه إذ النَّـاسُ نائِمُونَ، وبنهارِه إذِ النَّاسُ مُفطـرونَ، وبوَرَعِه إذِ النَّاسُ يَخْلِطـون، وبتواضُعِه إذِ النَّـاسُ يَختالونَ، وبحُزْنِـهِ إذِ النَّاس يَفْرَحونَ، وببُكَائِه إذِ النَّاسُ يَضحكونَ، وبصَمْتِهِ إذِ النَّاسُ يَخُوضونَ[3].

٤ ـ وقالَ الفضيلُ بنُ عِياضٍ: يَنْبَغـي لحامِلِ القرآنِ أَنْ لا يكونَ له حاجَةٌ إلى أَحَدٍ مـن الخَلْق، إلى الخليفةِ فَمَنْ دونَـه، ويَنبغي أَنْ تكونَ حوائجُ الخَلْقِ إليه.

وقالَ الفضيلُ أيضًا: حامِلُ القرآنِ حامِلُ رايةِ الإسـلام، لا يَنبغي له أَنْ يَلْغُوَ مَعَ مَنْ يَلْغو، ولا يَسْهُوَ مَعَ مَنْ يَسْهو، ولا يَلْهُوَ مع مَنْ يَلْهو.

وقالَ الفضيلُ أيضًا: إنَّما نَزَلَ القُرآنُ ليَعملَ النَّاسُ به، ليُحِلُّوا حَلالَه، ويُحَرِّموا حَرامَه، ويَقفوا عندَ مُتشابِهِه، فاتَّخَذَ الناسُ قراءَتَه عَمَلًا[4].

---

(١) أخلاق أهل القرآن، ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٤) المصدر السابق، ١٠٣.

٥ ـ وكَتَبَ **حُذَيْفَةُ المَرْعَشِيُّ إلى يوسفَ بن أَسباط** قائلًا: بَلَغَني أنك بِعْتَ دينَك بحبَّتَيْن؛ حيثُ وَقَفْتَ على صاحبِ لَبَنٍ، فقلتَ له: بكَمْ هذا؟ فقال لك: بِسُدُسٍ. فقلتَ: لا، بثُمُنٍ! فقال: هو لَك، وكان يعرِفُك. اكْشِفْ عن رأسِكَ قِناعَ الغافلين، وانتَبِهْ من رَقْدةِ المَوْتى، واعلمْ: أنه مَنْ قَرَأَ القُرآنَ ثم آثَرَ الدُّنيا، لم آمَنْ أَنْ يكونَ بآياتِ الله منَ المستهزئين[1].

٦ ـ وقالَ **ميمونُ بنُ مهران**: لو صَلَحَ أَهْلُ القُرآنِ صَلَحَ النَّاس.

٧ ـ وقالَ **خَلَفُ بنُ تَميم**: ماتَ أَبي وعليهِ دَيْنٌ، فأَتيتُ حمزَةَ الزَّيّات فسألْتُه أَنْ يكلِّمَ صَاحبَ الدَّيْن، أَنْ يضعَ عن أَبي من دَيْنِه شيئًا. فقالَ لِي حَمزة: وَيْحَكَ! إنه يقرأُ عَلَيَّ القُرآنَ، وَأنا أَكْرَهُ أَنْ أَشربَ ماءً من بيتِ مَنْ يَقْرَأُ عليَّ القُرآنَ[2].

٨ ـ وقالَ **الحسنُ البصريُّ**: قَرَأَ هذا القرآنَ ثلاثَةُ رِجال:

فَرَجُلٌ قرأَه، واتخذَه بضاعَة، ونقَلَه من بَلَدٍ إِلى بَلَد.

وَرَجُلٌ قَرأَه، فَأَقامَ على حُروفِهِ، وضَيَّعَ حُدُودَه، يقولُ: إِنّي واللهِ لَا أُسقطُ منَ القرآنِ حَرْفًا، كَثَّرَ اللهُ بهمُ القُبورَ، وأَخلا منهُم الدُّورَ، فواللهِ لَهُمْ أَشَدُّ كِبْرًا من صَاحبِ السَّرِيْرِ على سَرِيرِهِ، وصاحبِ المنبرِ على مِنْبَرِهِ.

ورجُلٌ قرأَه، فأَسْهَرَ ليْلَه، وَأَظمَأَ نهارَه، ومَنَعَ شهوتَه، فجَثَوْا في بَراثِنِهم، ورَكَدُوا في محاريبهم، بهم ينفي اللهُ العَدُوَّ، وبهِم يَسْقينا الغيثَ، وهذا الضَّرْبُ منَ القُرّاءِ أَعَزُّ من الكِبْريتِ الأَحمَرِ[3].

---

(١) أخلاق أهل القرآن، ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٢.

• كلام الآجُرّي عن صِفاتِ أهلِ القرآن:

٩ ـ ونختمُ النقولَ من كتابِ الآجُـرّي عن أَخلاقِ أَهلِ القرآنِ بهذه الفقراتِ من كلامه، ذكرَ فيها مجموعةً نافعةً منَ الأَخلاقِ العمليةِ لأَهْلِ القرآن.

قالَ الآجُرّي في «باب: ذكْر أخْلاقِ أَهْلِ القرآن»: «فأَوَّلُ ما يَنبغي له:

ـ أَنْ يَسـتعمِلَ تقوى اللهِ في السِّرِّ والعَلانية، باسـتعمالِ الوَرَعِ في مَطعَمِه، ومَشرَبِه، ومَسكَنِه، ومَلبَسِه.

ـ وأَنْ يكونَ بَصيرًا بزَمانه، وفسادِ أَهْلِه، فهو يَحْذَرُهم على دينه.

ـ وأَنْ يكونَ مُقبِلًا على شَـأْنِهِ، مَهْمومًا بإِصلاحِ ما فَسَـدَ من أَمْرِه، حافِظًا لِلِسـانه، مُمَيِّزًا لكَلامِـه؛ إِنْ تكَلَّمَ تكَلَّمَ بِعْلـمٍ، إذا رأى الكلامَ صَوابًا، وإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بعِلْم، إذا كان السُّكوتُ صَوابًا.

ـ قَليلَ الخوضِ فيما لا يَعْنيه، يخافُ من لسانِه أَشَدَّ ممَّا يخافُ من عَدُوِّه، يَحبسُ لسانَه كحبْسِه لعَدُوِّه: ليأَمَنَ من شَرِّه، وشَرِّ عاقبَتِه.

ـ قَليلَ الضَّحِك، مما يضحَكُ منه النّاسُ، إِن مَرَّ بشـيءٍ مما يُوافِقُ الحَقَّ، تبَسَّمَ، يَكرَهُ المزاح، خَوْفًا منَ اللَّعِب، فَإِنْ مَزَحَ قالَ حقًّا.

ـ باسِـطُ الوَجْه، طَيِّبُ الكَلامِ، لَا يَمْدَحُ نفسَـه بما فيه، فكيفَ بما ليسَ فيه؟! يحذَرُ نفسَه أَنْ تغلبَه على ما تهوى، مما يُسْخِطُ مولاه.

ـ لا يَغْتـابُ أَحَدًا، ولا يَحقرُ أَحَدًا، ولا يَسُـبُّ أَحَدًا، ولا يَشـمتُ

بمصيبَةٍ، ولا يَبغي على أَحَدٍ، ولا يَحسـدُهُ، ولا يُسيءُ الظَّنَّ بأَحَدٍ، إلَّا لِمَن يَستَحِقُّ.

ـ قد جَعَلَ القُرآن والسُّـنَّةَ والفقهَ دليلَه إلى كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ جميل، حافِظًا لجميعِ جوارحِه عمَّا نُهِيَ عنه.

ـ إنْ مَشى مَشى بعِلْمٍ، وإنْ قَعَدَ قَعَدَ بعِلْمٍ، يجتهدُ ليَسلمَ النَّاسُ من لسـانِه ويَدِه. ولا يَجهلُ، وإنْ جُهِلَ عليه حَلِم. لا يَظلم، وإنْ ظُلِمَ عَفى. لا يَبْغي، وإنْ بُغِيَ عليه صَبَر.

ـ يَكْظُمُ غَيْظَه ليُرضيَ رَبَّه، ويُغيظَ عَدُوَّه. متواضِعٌ في نفسه. إذا قيلَ لَهُ الحَـقّ، قَبِلَه، مِـنْ صَغيـرٍ أَو كَبيرٍ، يَطلـبُ الرِّفعةَ مـنَ الله، لَا منَ المخلوقين، ماقِتٌ لِلْكِبْر، خائِفٌ على نفسِه منه.

ـ لا يتآكَلُ بالقُـرآنِ، ولا يُحِبُّ أَنْ تُقْضى له الحَوائجُ بسـببِه، ولا يَسعى به إلى أَبْناءِ المُلوكِ، ولا يُجالسُ به الأَغنياءَ ليُكْرِموه.

ـ إنْ كَسَـبَ النَّاسُ من الدُّنيا الكثيرَ بلا فِقْهٍ ولا بَصيرَةٍ، كَسَبَ هو القليلَ بفِقْـهٍ وعِلْمٍ. إنْ لبسَ النَّاسُ اللَّيِّنَ الفاخِـرَ، لَبِسَ هو من الحَلالِ ما يَسْتُرُ به عَورَتَه. إنْ وُسِّعَ عليه وَسَّـعَ، وإنْ أُمْسِكَ عليه أَمْسَك، يَقْنَعُ بالقَليلِ فيَكفيه، ويَحذرُ على نفسِه من الدُّنيا ما يُطْغيه.

ـ يَتَّبِعُ واجباتِ القُرآنِ والسُّـنَّة، يأَكُلُ بعِلْمٍ، ويَشـربُ بعِلْمٍ، ويَنامُ بعِلْمٍ، ويُجامِـعُ أَهْلَه بعِلْمٍ، ويَصحَـبُ الإخوانَ بعِلْـمٍ، يَزورُهم بعِلْمٍ، ويستأذِنُ عليهم بعِلْمٍ، ويُسَلِّمُ عليهم بعِلْمٍ، ويُحاوِرُ جارَه بِعِلْمٍ.

ـ يُلْزِمُ نفسَـه بِرَّ والِدَيْه، فيخفضُ لهُما جَناحَـه، ويَبذلُ لهُما مالَه،

ويَنظرُ إليهما بعينِ الوَقارِ والرَّحمة، يَدْعو لهما، ويَشْكُر لهُما عندَ الكِبَرِ، لَا يَضجَرُ بهما، ولا يُحَقِّرُهُما، إن اسْتعانا بِه على طَاعَةِ اللهِ أَعانَهمَا، وإن اسْتعانا به على مَعْصِيَةٍ لم يُعِنْهُما عليها، ويرفقُ بهما، يَصِلُ الرَّحِمَ، ويكرَهُ القطيعَةَ، مَنْ قَطعَه لم يَقطعْه، مَنْ عَصى اللهَ فيه أَطاعَ هو اللهَ فيه.

- مَنْ صَحِبَه نَفَعَه، حَسَنُ المجالسةِ لمَنْ جالَسَه، إنْ عَلَّمَ غَيْرَه رَفَقَ به، لا يُعَنِّفُ مَنْ أَخْطَأَ ولا يُخَجِّلُه، رَفيقٌ في أُمورِه، صَبورٌ على تَعليمِ الخَيْرِ، يَأْنَسُ به المتعَلِّم، ويَفْرَحُ به المُجالِسُ، مُجالَسَتُه تُفيدُ خيرًا، مُؤَدِّبٌ لِمَنْ جالَسَه بأَدَبِ القُرآن والسُّنَّة.

- إذا أُصيبَ بمصيبَةٍ يُؤَدِّبُه الكتابُ والسُّنَّة، يَحْزَنُ بعِلْمٍ، ويَبْكي بعِلْمٍ، ويَصْبِرُ بعِلْمٍ، ويتطهَّرُ بعِلْمٍ، ويُصلّي بعِلْمٍ، ويُزَكّي بعِلْمٍ، ويتصدَّقُ بعِلْمٍ، ويَصومُ بعِلْمٍ، ويَحُجُّ بعِلْمٍ، ويجاهِدُ بعلمٍ، ويكتسبُ بعِلْمٍ، وينفِقُ بعِلْمٍ.

- يَتصفَّحُ القُرآنَ ليؤَدِّبَ به نفسَه، إذا دَرَسَ القُرآنَ فبحُضورِ فَهْمٍ وعَقْلٍ، هَمُّه من القراءَةِ أَنْ يَفْهَمَ ما أَمَرَهُ اللهُ به ليتَّبِعَه، ويَفْهَمَ ما نهاهُ اللهُ عنه لينتهيَ عنه، وليس هَمُّه متى يختمُ السورَة.

- إذا تَلا القُرآنَ اسْتَعْرَضَه، فكانَ كالمِرآة، يَرى بها ما حَسُنَ من فِعْلِه، وما قَبُحَ منه مما حَذَّرَهُ مَولاهُ تَرَكَه، وما خَوَّفَه به من عِقابِه خافَه. وما رغَّبَ فيه مولاهُ رَغِبَ فيه ورَجاهُ.

فَمَنْ كانَتْ هذه صفتَه، أَو ما قَارَبَ هذه الصِّفَة، فقد تَلاهُ حَقَّ تِلاوَتِه،

ورَعاهُ حَقَّ رِعَايَتِه، وكانَ له القُرآنُ شـاهِدًا وشَفِيعًا، وأنيسًا وحِرْزًا، ومَنْ كانَ هذا وَصْفُه نفَعَ نفسَه وأَهْلَه»[١].

• الجيلُ القُرآني الفَريد:

أقتبسُ هذا العنوانَ من كتابِ سيد قطب «معالم في الطريق»، حيثُ خَصَّصَ فيه فَصلًا لدراسةِ وتَحليلِ ظاهِرةِ جيلِ الصَّحابةِ المبارَك، سَمّاه «جيلٌ قرآنيٌّ فريد».

ومَنْ أرادَ أَنْ يتعـرَّفَ على صِفاتِ حامِلِ القُـرآنِ، ويتخلَّقَ بأَخْلاقِ أَهلِ القرآن، فما عليه إلاَّ أَنْ يدرسَ شَمائِلَ وصفاتِ الرسولِ ﷺ، ويقفَ طَويلًا أَمامَ سيرتِه العَطِرة، وسنَّتِه المباركة، وهَدْيِه في حياتِه، ثم يدرسَ حياةَ الصَّحابةِ الكرامِ، رضوانُ اللهِ عليهم.

أَمّا الرسـولُ ﷺ، فهو أَوَّلُ مُفَسِّـرٍ للقـرآن، وأَوَّلُ ملتزمٍ بـه، مُنَفِّذٍ لأَحْكامِه، مُتَخلِّقٍ بتوجيهاتِه، مُتَّصفٍ بالصِّفاتِ الَّتي دَعا إِليها.

وهذا ما أَشارَتْ إليه عائشة رضي الله عنها.

فقد روى مسـلمٌ: عن سَعْدِ بنِ هشـامِ بنِ عامر: أَنه سأَلَ عائشةَ رضي الله عنها قائلًا: يا أُمَّ المؤمنين! أَنْبِئِيني عن خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ. قالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ القُرآنَ؟ قلتُ: بَلَى. قالَتْ: فإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ القُرآنَ[٢].

ومَعْنى جَوابِ عائشِـةَ للسَّـائل: أَنَّ رَسُـوْلَ اللهِ ﷺ تخَلَّقَ بالقُرآنِ،

---

(١) أخلاق أهل القرآن، للآجُرّي، ص ٧٧ ـ ٨١ بتصرف واختصار.

(٢) رواه مسلم في كتابِ صَلاةِ المسافرين، باب جامع صلاةِ الليل، حديث رقم (٧٤٦).

وامْتَثَلَ أَوامِرَه، ووقفَ عندَ حُدودِه، فجاءَتْ حياتُه العمليةُ تَطبيقًا عَمَليًا لمبادئِ القرآن، وتفسيرًا واقعيًا لآياتِه.

وقد اقْتدى به أَصحابُه رِضوانُ اللهِ عليهم، فحرَصوا على حُسْنِ فَهْمِ القُرآنِ وتدبُّره، وعلى حُسْنِ تطبيقِه والحركةِ به، وعلى حُسْنِ التخلُّقِ بأَخْلاقِه.

تعامَلَ الصَّحابةُ مع القرآن تَعامُلًا حَيًا، وتَخَلَّقوا به تَخَلُّقًا واقِعِيًّا، وتَحركوا به حركةً عمليَّة، وعاشوا في ظِلالِه حياةً حقيقيةً مباركةً سعيدةً، وبذلك صاروا جيلًا قُرآنيًا فريدًا.

• من أسباب تفرُّد جيل الصَّحابة:

وقد رصَدَ سيد قطب أسبابَ تحَوُّل الصَّحابةِ بالقرآنِ من حياةٍ إلى حياة، وكَوْنِهم ظاهِرَةً قُرآنيةً عمليةً، وترجمةً قُرآنيةً واقعيةً، وجيلًا قرآنيًا فَريدًا. وسَجَّلَ ثلاثَةَ أَسْبابٍ لهذه الظَّاهِرَة:

الأَوّل: الصّدقُ، والجِدِّيةُ في الإقبالِ على القُرآن، والتفاعُلِ معه، والتَّعامُلِ مع الإِسلام:

فقد كانَ الرَّجُلُ منهم عندما يدخُلُ في الإسلام، ويُقْبِلُ على عالَمِ القرآن، يبدأُ بدايةً صادِقَةً جادَّةً، وكانَ يتخلَّصُ من ماضيه الجاهِليِّ كُلِّه، ويتركُ على بابِ الإِسلامِ كُلَّ ذلك الحملِ الثّقيلِ، بما فيه من تَجاوُزاتٍ، ومُخالفاتٍ، وتَشَوُّهات، ويُسَلِّمُ نفسَه للقرآن، ليشكِّلَ له عَقْلَه، ويَصوغَ له شخصيَّتَه وكيانَه.

الثَّاني: صَفاءُ النبعِ الَّذي يشربونَه في مرحلةِ الحضانَةِ:

فقد كانَ الرَّسولُ ﷺ حَريصًا على أَنْ يتَربَّى أَصحابُه - في مرحلةِ

الحضانةِ والتَّكوين - على القُرآنِ وَحْدَهُ، وأَنْ يَشْـربوا من نَبعِه الصَّافي المبارَك، وأَنْ يَتشَرَّبوا مبادِئَه وحقائِقَه، وأَنْ يَنْموا ويُصَاغوا على هَدْيِهِ.

وفي هذه المرحلـةِ كانَ حريصًا على عَدمِ تَشْـويهِ صياغَتِهم بأَفكارٍ ودِراسـاتٍ أُخْرى، فَمَنَعَهم من الأَخْذِ عَنِ اليهـودِ، والقراءَةِ في التَّوراة. وبذلك نَشؤوا نَشْأَةً قرآنيةً، ونَبَتوا نَبْتًا قُرآنيًا، وجاؤوا ثمرةً قرآنيةً.

الثَّالث: التَّلقّي للتَّنفيذ:

وهذا ناتجٌ عن السَّبَبَين السَّـابقَيْن، فبما أَنهم بَدَؤُوا البداية الجادَّة الصَّادِقَةَ مع القرآن، واكْتَفُوا بالزَّادِ القُرآني، لذلك تَعامَلوا مع نُصوص القُرآن وآياتِه وتوجيهاتِه وأَوامرِه بإيجابيَّةٍ حركيَّةٍ، حيثُ اعْتَبَروها أَوامِرَ ميدانِيَّة، وتكاليفَ عملية، المطلوبُ منهم الالتـزام بها، فَتَلَقَّوْها تَلَقِّيًا للتَّنفيذ، وحَوَّلوها من مجرَّدِ أوامِرَ نظريةٍ إلى بَرامِجَ عمليَّة، وسارَعوا في تَطبيقِها على حياتِهم، والحركةِ بها فيما حولَهم.

وكُلُّ مَنْ أَرادَ أَنْ يَكونَ نتاجًا مُبـارَكًا لتربيةِ القُرآن، عليه أَنْ يُلاحِظَ توَفُّرَ هذه الأُمورِ الثَّلاثَةِ فيه.

- **معنى** ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾:

ومما يتصلُ بالكلامِ عن صِفاتِ حاملِ القرآن، الوقوفُ أَمامَ آيَةٍ من كتـابِ الله تخبرُ عن تلاوةِ القُرآنَ حَقَّ تلاوَتِه، فمـا هو المُرادُ بالتِّلاوة؟ وكيفَ تكونُ تلاوَتُه حَقَّ تلاوَتِه؟.

قالَ اللهُ تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

المعروفُ عندَ النَّاسِ: أَنَّ تلاوةَ القرآنِ محصورَةٌ بقراءَتِه، يُقالُ: فُلانٌ يَتْلو القرآنَ؛ أَي: يَقْرَؤُه.

والمعروفُ عندهم: أَنَّ «حَـقَّ التِّلاوة» هو: إِخْراجُ حُرُوفِ القُرآنِ من مخارِجِهـا، وملاحَظَةُ أَحـكامِ التلاوة، والحرصُ على تَحسـينِ تَجويدِ القرآنِ والنُّطقِ به.

وهذا مَعنى من مَعاني التِّلاوة، نَعترفُ به، وهذا مطلوبٌ من كُلِّ مَنْ تَلا القُرآنَ، لكنَّ التِّلاوةَ ليستْ محصورةً بهذا المعنى!.

إِنَّنا نعتقدُ أَنَّ للتلاوةِ معنيَيْن:

الأَول هو: القُراءَةُ لآيـاتِ القرآن، على اعتبـارِ أَنَّ تِلاوَتَها وقراءَتَها عبادَة، يتقرَّبُ بها المُسلمُ إِلى الله، ويَرجو ثوابَه.

وبهذا المعنى للتِّلاوة، وَرَدَتْ عِدَّةُ آياتٍ؛ منها:

قولُـه تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

أَي: إِنَّ الذينَ يَقْرَؤونَ آياتِ كتابِ الله.

الثاني هو: الاتِّبـاع. يُقالُ: جاءَ فُلانٌ يَتْلو فُلانـًا. أَي: جاءَ فُلانٌ يَتْبَعُ فُلانًا.

وَوَرَدت التِّلاوةُ بمعنى الاتِّباعِ في آياتٍ منها:

قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٢].

أَي: القمرُ إِذا طلعَ بعدَ غيابِ الشَّمس، وتَلاها وتَبِعَها.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

أَي: الرَّسولُ على بَيِّنَةٍ من رَبِّه ويَتْبَعُه شاهِدٌ منه.

• التِّلاوةُ في أقوال السَّلف: الاتِّباع:

وقد ذهبَ كثيرٌ من الصَّحابةِ والتَّابعين إلى أَنَّ معنى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يَتَّبِعونَ القرآنَ حَقَّ اتِّباعِه.

وسَجَّلَ إمامُ المُفَسِّرين والمُؤَرِّخين، الإمامُ أَبو جعفر محمدُ بنُ جَريرٍ الطبري، أقوالًا لهؤلاء؛ منها:

- قالَ **ابنُ عباس** رضي الله عنهما: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يَتَّبِعونه حَقَّ اتِّباعِهِ، يُحِلّونَ حلالَه، ويُحَرِّمونَ حرامَه، ولا يُحَرِّفونَه عن مواضِعِه.

- وقالَ **ابنُ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه: والذي نفسي بيدِه! إنَّ حَقَّ تِلاوَتِه: أَنْ يُحِلَّ حلالَه، ويُحَرِّمَ حرامَه، ويَقرأَه كما أَنزلَه الله، ولا يُحَرِّفَ الكَلِمَ عن مواضِعِه، ولا يَتأَوَّلَ منه شيئًا على غيرِ تأويلِه.

- وقالَ **قَيْسُ بنُ سَعْدٍ** رضي الله عنه: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يَتَّبِعونه حَقَّ اتِّباعِه، أَلَمْ تَرَ إلى قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ يعني: الشَّمسُ إذا تَبِعَها القَمَر.

- وقالَ **عطاءٌ**: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يَتَّبِعونه حَقَّ اتِّباعِه، ويَعملونَ به حَقَّ عملِه.

- وقال الحسنُ البصريُّ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يَعملون بمُحْكَمِه، ويؤمنونَ بمتَشابِهِه، ويَكِلُونَ ما أَشْكَلَ عليهم إلى عالِمِه.

- وقالَ قتادَة: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: أَحلّوا حَلالَه، وحَرَّموا حرامَه، وعَمِلوا بما فيه[1].

معنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ إذًا: يَقْرؤونَه أَوَّلًا حَقَّ القِراءَة، بضَبْطٍ وتَجويدٍ وإحسانٍ، ثُمَّ باتِّباعِهِ حَقَّ الاتِّباع، والالتزامِ به حَقَّ الالتزام، وذلك بحُسْنِ فَهْمِه، وتطبيقِه والحَركةِ به.

* * *

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في: تفسير الطبري: ٢/٥٦٦ - ٥٧١، بتحقيق محمود شاكر.

حادي عشر

القرآنُ والعقل



صِلَةُ العقلِ بالقُرآنِ شابَها كَثيرٌ من اللَّبْس والخَلْطِ عند بعضِ المُفكِّرين المُسلمين، وبعضِ الفِرَقِ الإسلامية، حيثُ لم يَعْرِفوا حُدودَ العقلِ ومَجالاتِه، وخَلَطُوا بين العَقْلِ والنَّصِّ، وجَعَلُوا العقلَ هو السَّيِّدَ والحاكِمَ على النَّصّ. بينما نَرى الأَمْرَ واضِحًا في القُرآن دون خَلْطٍ أَو لَبْس.

فما هي الصِّلَةُ بين القرآنِ والعقلِ المسلم؟ وما هي حُدودُ ومَجالاتُ عَمَلِ العَقْل؟ وهل يُلغي القرآنُ دَوْرَ العَقل، أَمْ ينظمُه ويضبطُ عمله ويُحَدِّدُ مَجالَه؟.

• مَحدوديَّةُ مجالِ العقل:

العقلُ مَخْلوقٌ، خَلَقَه الله، وهو هِبَةٌ منَ الله، وَهَبَه اللهُ لصاحِبِه، وهذا العقلُ يَضبطُ عملَ الإنسانِ وكيانَه، وهذه هي الدلالةُ اللغويةُ لهذا المصطلح: «العَقْل».

فالعَقْلُ في اللُّغة هو: القَيْدُ والرَّبْط، يُقال: عَقَلَ فُلانٌ الدَّابَّةَ: إذا رَبَطَها وقَيَّدَها.

وسُـمِّيَ عَقْلًا؛ لأنه يُقَيِّدُ تَصَرُّفاتِ الإنسـان، ويمنَعُـه من ارتكابِ ما لا يَليقُ من الأَقوالِ والأَعْمال.

وإذا فَقَدَ الإنسانُ عَقْلَه اخْتَلَّ تَوازُنُه، وفَقَدَ ضَوابِطَه وقُيودَه، وما عادَ يُقَيِّدُه شَيْءٌ، وصارَ يَصْدُرُ عنه تَصَرُّفاتٌ قَبيحةٌ مُسْتَهْجَنَةٌ.

والعقلُ في الإسلام مَناطُ التَّكليف، وأَساسُ تحَمُّل المسؤوليَّة، ومَنْ فَقَدَ عَقْلَه لم يُكَلِّفْه الإسـلامُ بشَيْءٍ، والقاعِدَةُ الشَّـرعيةُ تُقَرِّرُ: أَنَّ اللهَ إِذا أَخَذَ ما وَهَبَ من العَقْل، أَسقطَ ما أَوْجَبَ من التَّكليف.

وعَقْلُ الإنسـانِ ليس كامِلًا كمالًا مُطْلَقًا، بـل ينطبقُ عليه ما ينطبقُ على الإنسانِ من صِفاتٍ وخصائِص، فالإنسانُ يَعْتَريه الضَّعفُ والعَجْزُ، والنَّقـصُ والخطَأُ. وهكَذا عَقْلُ الإنسـان، فهو يَتَّصِـفُ بذلك، وأَعظمُ العقولِ يكونُ فيه الضعفُ والعجزُ والنقصُ والخَطَأ.

وقد أَبى اللهُ إِلَّا أَنْ يجعلَ الكَمالَ المطْلَقَ له ﷻ.

وبما أَنَّ هـذه هي طبيعـةُ العقل، لذلـك كانَ مَجالُـه وَميدانُه مَحْدودًا، فمجَالُه ليس مُطْلَقًا ولا عامًّا.

وإِذا خاضَ العَقْلُ في غيرِ مَجالِه، وخَرَجَ عن مَيْدانِه، وَقَعَ في الخَطَأ والاضطراب، وقَدَّمَ شَيئًا ساذَجًا مُضحِكًا.

- **المحظور على العقل:**

اللهُ الذي حَدَّدَ للعَقْلِ الإنسـانيِّ مَجالَه، وعَلِـمَ طاقَته وقُدْرَته، حَظَرَ عليه البحثَ فـي مَجالاته؛ لأَنه لم يُـزَوَّدْ بالمؤَهِّلاتِ لذلـك، وَوَجَّهَهُ

للبَحْثِ في مجالاتٍ ومَيادينَ هو مُؤَهَّلٌ لها، وقادِرٌ على الخَوْضِ فيها.

الموجوداتُ في هذا الوجودِ نَوْعان: مَوْجوداتٌ في عالَمِ الغَيْب، وموجوداتٌ في عالَمِ الشَّهادة.

عالَمُ الغَيْبِ: حَظَرَ اللهُ على العَقْلِ الإنْسانيِّ الخَوْضَ فيه؛ لأَنه لم يُؤَهِّلْه لذلك، ولم يُزَوِّدْه بما يُعينُه على ذلك.

ومن عالَمِ الغَيْبِ: وُجودُ اللهِ سبحانَه، وَوُجودُ الملائِكَةِ والجنِّ والشَّياطين، وَوُجودُ الجَنَّةِ والنّار، وغير ذلك من أركانِ الإيمان.

والعقلُ إذا حاولَ الخوضَ في عالَمِ الغَيْبِ يَضِلُّ، وَإذا حاوَلَ تَشكيلَ واستحضارَ تفصيلاتِ عوالِمِ الغَيْبِ اسْتِحْضارًا عَقْليًا يعجزُ عن ذلك؛ لأَنَّ فعلَ ذلك غيرُ ممكنٍ.. وعندما يعجزُ قد يَشْتَطُّ وَيتعالَم، فينكرُ وُجودَ العوالِمِ والتَّفصيلات، وهذا هو أَساسُ الخَطأ والانحراف.

على العَقْلِ الإِسلاميِّ أَنْ يَتواضَع، وأَنْ يعرفَ حُدودَه ومجالاتِه، وأَنْ يَعترفَ بضَعْفِه ونقْصِه ومحدوديَّتِه، وأَنْ يُقِرَّ بعجْزِه عن تَصَوُّرِ تفاصيلِ عالَمِ الغَيْب!.

وإِذا ما استحالَ على العَقْلِ تَصَوُّرُ وإِدراكُ تَفاصيلِ عالَمِ الغيبِ تَصَوُّرًا وإِدْراكًا عَقْلِيًّا، فعليه أَنْ يَأْخُذَ هذه التفاصيلَ من مَصْدَرٍ آخَرَ؛ وهذا المصدَرُ هو النَّصُّ، المتمثلُ في آياتِ القُرآنِ الصَّريحة، وَأحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ الصَّحيحة، التي أَخبرهُ اللهُ فيها عن تفاصيلِ عالَمِ الغَيْبِ.

وهنا نُسارعُ فنقولُ: إِنَّ الطَّريقَ إِلى إِثباتِ عَوالِمِ الغَيْب طريقٌ عَقْلي،

والطَّريقُ إلى الإيمانِ بها - وهي أَركانُ الإيمان - طَريقٌ عَقْلِيٌّ؛ لأَنه ليس فيها مُستحيلٌ عَقْلًا.

العقلُ المسلِمُ المُتَّزِنُ يأخذُ بيدِ صاحبِه إلى عَتَبَةِ بابِ الغَيْب، ويوقِفُه على بابِ الإيمانِ بالغَيْب، فالطريقُ إلى ذلِك العالَم طريقٌ عَقْلِيٌّ ونَقْلِيٌّ.

وعندما يَقفُ المؤمنُ على عَتَبَةِ عالَمِ الغَيْب، يَنْتَهي دَوْرُ العقل ومَجالُه، ويأتي دَورُ النَّصِّ والسَّمْع، المتمثلُ في الآياتِ والأحاديثِ الصَّحيحة، فيقدِّمُ لهذا المؤمنِ تفاصيلَ عن ذلك العالَم.

وَيَتَلَقَّى العقلُ المسلمُ المُتَّزِنُ هذه المعلوماتِ والتَّفاصيلَ بالقَبول والإيمانِ واليقين، ويكونُ دورُه فيها هو الفهمَ والاستيعابَ، والتَّدبُّرَ والتَّأَثُّر.

• مجال العقل وميدانه:

إذا كانَ اللهُ قد حَظَرَ على العَقْلِ الخوضَ في عالَمِ الغيب، فليسَ معنى هذا أَنه عَطَّلَهُ وأَلْغاهُ وأَهْمَلَه، أَو أنه شَلَّه عن وظيفَتِه.

لقد جَعَلَ اللهُ للعَقْلِ مَجالًا عَريضًا يَخوضُ فيه، ومَيْدانًا واسِعًا يَتَحَرَّكُ من خِلالِه.

هذا المجالُ هو الكونُ المَنْظور، الذي يَتعامَلُ معه المسلمُ بحواسِّه، من السَّمَعِ والبَصَر، والتَّصَوُّرِ والإدراك، وهذا الميدانُ هو مَيْدانُ الشَّهادة، الذي يشاهِدُه هذا الإنسان، ويدركُه بحواسِّه.

ولا يَظُنَّنَّ ظانٌّ أَنَّ هذا ميدانٌ صَغيرٌ، ومَجالٌ ضَيِّقٌ، فعالَمُ الشَّـهادَة يشمَلُ هذا الكونَ المنظورَ، وما فيه من مُشاهَداتٍ ورُؤًى ومَحسوسات، وما فيه من سُـنَنٍ وقَوانينَ رَبّانِيَّةٍ تحكُمُ هـذا الكون، وما فيه من آياتٍ وأَدِلَّة، وما فيه مـن طاقاتٍ وقُـدُراتٍ وقُوًى، وما فيه مـن مَوْجوداتٍ ومَخْلوقات، من الأحياءِ والجَمادات.

ونَجزمُ بأَنَّ عقولَ البَشَـرِ لن تَسـتنفدَ هذه المجالاتِ والميادينَ في عالَمِ الشَّـهادة، وأَنَّ أَصحابَها سَـيُنْهُونَ حياتَهـم وأَعمارَهم، ولا تُنْهي عقولُهم جولاتِها فيها، وتَدَبُّرَها لَها.

فلماذا يُصِرُّ ذَوُو عُقولٍ قاصِـرَةٍ ضَيِّقَة، على تَجاوُزِ البحثِ في عالَمِ الشَّـهادَة، الذي أَهَّلَ اللهُ عقولَهم للخـوضِ فيه، لتحقيـقِ الخِلافَةِ في الأَرض، ويَذْهبونَ بها للخَـوضِ في تفاصيلِ عالَمِ الغَيْـب، وهي غَيْرُ مُؤَهَّلَةٍ لذلك؟! ومن ثم يَخرجونَ بنتائجَ خاطِئَةٍ ساذَجَةٍ مضحِكَة!..

على أَصحابِ العُقـولِ أَنْ يكونوا عاقِلين، وأَنْ لا يَسْـتَنْفِدوها في الخوضِ في غيرِ ما هُيِّئَتْ له، وأَنْ يَعْتَرِفوا بمحدودِيَّةِ مجالِ هذه العقول.

• العقل تابعٌ للنَّصّ وليس حاكمًا عليه:

الصِّلَةُ بينَ العَقْلِ الإِسـلاميِّ والنَّصِّ القرآنيِّ، سَبَّبَتْ «إِشْكالِيَّةً» عند بعـضِ المفكِّرينَ المُسـلمين، وبعضِ الفِرَقِ الإِسـلامية؛ من الذين لم يَعْرِفوا حُدودَ ومجالاتِ وميادين وقُدُراتِ وطاقاتِ العَقْل.

العَقْلُ والنَّصُّ؛ أَيُّهما السَّـيِّدُ وَأَيُّهمـا التابع؟ أَيُّهمـا الحَاكِمُ على الآخر؟ أَيُّهما الضّابط للآخر؟.

النَّصُّ القرآنيُّ هو كَلامُ الله، والعقلُ الإسلاميُّ هو ذاك المخلوقُ الضَّعيفُ العاجِزُ المحدود المُعَرَّضُ للنقصِ والخَطأ.

بعضُ أَصحابِ العُقولِ القاصرةِ والأَنظارِ الضَّيِّقةِ، يَعْكِسون المُعادَلَة، فيَجعلونَ المَحْدودَ سَيِّدًا، والعاجِزَ الضَّعيفَ حاكِمًا! إنهم يَجعلونَ عُقولَهم القاصِرَةَ العاجزةَ المحدودَةَ حاكِمَةً على الآياتِ القُرآنية، وسَيِّدَةً لها، ومُوَجِّهَةً لمعانيها! ويُدْخِلونَ معلوماتِ هذه الآياتِ إلى مَجالاتِ عُقولِهم ومَيادينِها، وَيُقْحِمُونَ عُقولَهم في إِدْراكِها وتَصَوُّرِها، ومن ثَمَّ يُنْكِرونَ ما لم يَدْخُلْ مجالَ تلك العقولِ المَحْدودَةِ.

أَصحابُ هذه العقولِ في القَديمِ والحديثِ يَتعامَلون مع النُّصوصِ، بِمزاجيَّةٍ عقليَّة، وهوًى عَقْلِي، فيَقْبَلون منها ما يوافِقُ هذا الهَوى، ويَرفضونَ ما يُخالِفُه.

النَّظرةُ الصَّحيحةُ التي تُحَدِّدُ الصِّلَةَ بين العَقْلِ والنَّصِّ، هي تِلكَ النَّظرةُ التي نَظَرَ بها الصَّحابَةُ الكرامُ رِضْوانُ اللهِ عليهم إلى القُرآن الكريم، وتعامَلوا معه على أَساسِها.

لقد اعْتَبَروا النَّصَّ القرآنِيَّ هو الأَصْلَ، وتَعامَلوا معه بقُدْسِيَّةٍ واحترامٍ، واعْتَبَروا عقولَهم البشريةَ العاجزةَ القاصِرَةَ تابِعَةً لذلك النَّصّ، وخادِمَةً له، ومُتَفاعِلَةً معه.

لقد تَلَقَّوا مُقَرَّراتِ ومَعْلوماتِ الآياتِ بِتَسليمٍ إيمانِيٍّ، ويَقينٍ عَقْلِيٍّ، وحاكَموا مَفاهيمَ عُقولِهم إلى تلك المُقَرَّراتِ القُرآنية، واعْتَمَدوا منها ما أَقَرَّتْهُ تِلكَ المُقَرّرات، وأَلْغَوْا منها ما نَقَضَتْه تلك المُقَرّرات، ومن ثَمَّ أَعادوا تَشْكيلَ وتَرتيبَ عُقولِهم ومَعلوماتِها ومُقَرَّراتِها.

وبذلك كانتْ عقولهم إيمانيَّة، وكانـت أفكارُهم ومَدارِكُهم الناتجةُ عنها قرآنية، وبذلك كانوا رِجالًا قُرآنيين، وعُقلاءَ عامِلين.

• القرآن يُكَرِّم العقل:

النَّصُّ القرآنيُّ هو الأَصْل، وهو السَّـيِّدُ والحاكِمُ، والعقلُ الإنسْانيُّ هو التابعُ للنَّصّ، المتدبِّرُ له، المحكومُ به.

دورُ العَقْلِ مع النَّصِّ هو فَهْمُه وتَدَبُّـرُه، وإِدْراك مَدْلولاتِه ومَعانيه، واستخراجُ دُروسِـه وعِبَرِه، وفِقْهُ الحَياةِ على أَساسِـه، وهذا دَورٌ كَبيرٌ، ومهمَّةٌ شَريفَةٌ.

وليـس دورُ العَقْلِ هـو التحكُّمَ في النَّـص، والتَّأَلِّيَ عليـهِ، وأَخْذَ ما يشاءُ من مَدلولاتِه، ممَّا يوافِقُ هَواهُ، ورَفْضَ ما لا يوافِقُه.

وعلى العقلِ أَنْ يتأَدَّبَ مع النَّـصِّ حَقَّ التَّأَدُّبِ، وأَنْ يَعْرِفَ حَدَّه فلا يَتَعَـدَّاه، ومَجالَه فلا يَتجـاوَزُه، وأَنْ لا يَظْلِمَ فيطالِبَ بمـا ليسَ له، أَو يعتديَ فيأْخُذَ نَصيبَ غيرِه!.

لقد كَرَّمَ القرآنُ العَقْلَ، وأَشـادَ به، وأَثْنى عليـه، وأَطْلَقَ له المَجالَ ليُبْدِعَ ويَعْمَلَ، وحَرَّرَهُ من أَسْـرِ القُيودِ الباطلـة، والخُرافاتِ والأَوْهام، ولقد رَبّى القرآنُ العَقْلَ، وصاغَه صِياغَةً قُرآنية، ونشَّأَهُ تَنْشئَةً إيمانِيَّة.

ومع ذلك حَدَّدَ القـرآنُ للعقل مَجالَه المحدودَ ـ وهـو مَجالٌ كَبيرٌ عَريضٌ ـ وحَظَرَ عليه الخـوضَ في غيرِ مَجالِه؛ لأَنَّه لم يُزَوَّدْ بوَسـائِلَ لذلك.

ومع ذلك طالَبَ القرآنُ العقلَ أَنْ يَبْقى تابِعًا له، دائِرًا مَعه، مُلازِمًا لهُ، ونَهاهُ عن تَجاوُزِ منزلَتِه، وتَعَدّي وَظيفَتِهِ.

على العقْلِ أَنْ يَتواضَعَ أَمَامَ القُرآن، وأَنْ لا يَتعالَم علَيه، وعليه أَنْ تكونَ صلتُه به صِلَةَ التابِعِ بالمَتْبوع، لا صِلَةَ الحاكِمِ بالمحكوم، أَو صِلَةَ النِّدِّ بالنِّدِّ.

عِلْمُ اللهِ مُطْلَقٌ، وعِلْمُ العقلِ الإنسانيِّ مَحْدودٌ؛ وكيفَ للمَحدودِ أَنْ يَتعالَمَ على المُطْلَقِ، ويحكُمَ عليه؟!.

وقَد وَجَّهَ اللهُ هذا السُّؤالَ إلى الذين يَتعالَمونَ عليه، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

• دخول عالم القرآن دون مقررات مسبقة:

بعدَما حَدَّدْنا صِلَةَ العَقْلِ بالقُرآن، علىأَنها صِلَـةُ التَّابِعِ بالمَتْبوع، نتوقَّفُ لحظَةً لنعرفَ شَرْطَ حُسْنِ فَهْمِ العَقْلِ للقرآن.

فقد سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنا أَنَّ مِن أَسبابِ حُسْنِ فَهْمِ الصّحابَةِ للقرآن، وتَربيتِهم عليه، حتى كانوا جيلًا قرآنيًا فريدًا، هو دخولَهم عالَمَ القرآنِ دونَ مُقَرَّراتٍ عقليَّةٍ مسبَقَة، حيثُ أَلْقَوْا على عَتَبَةِ عالَمِ القرآن كلَّ ماضيهم الجاهِليّ، وتَخَلَّوْا عن ذلك الإِرْثِ الجاهِليِّ الثَّقيلِ المُعيق، وبَدَؤُوا مَعَ القرآنِ من جَديدٍ، وتَرَكوا للقرآنِ صِياغَةَ نفوسِهم، وتَشكيلَ عُقولِهم، وتكوينَ معارِفِهم وتَصَوُّراتِهم، فقامَ القرآنُ بمهمَّتِه معهم خَيْرَ قيام.

- وعَلَيْنا أَنْ نَقْتَدِيَ بالصَّحابةِ الكِرَامِ في هذا المقام.

- عَلَيْنا أَنْ ندخلَ عالَمَ القرآنِ دونَ مُقَرَّراتٍ مُسْبَقَة، وأَنْ نَتلقّى حقائِقَه دونَ مزاجيَّةٍ أَو هوًى.

- وعلينا أَنْ نَتَخَلَّى عن كُلِّ النَّظَراتِ والتَّصوُّراتِ والآراءِ والأَفكارِ التي حَصَّلَتْها عُقولُنا، من مَصادِرِ المعرفةِ والثقافةِ غيرِ الإِسلامية، طالَما تَتَصادَمُ هذه الأَفكارُ والآراءُ مع تَصَوُّراتِ القرآن.

- علينا أَنْ نتوقَّفَ عن الشُّرْبِ من اليَنابيع الثقافيَّةِ الجاهلِيَّةِ المُلوَّثة، وأَنْ لا نَصوغَ ونُنْشِئَ عُقولَنا عليها، وأَنْ لا نَشْحَنَها بما تقدِّمُه من نَتاجٍ جاهِلِيٍّ، مُخالِفٍ للحقائِقِ القُرآنية.

- علينا أَنْ نَتخلَّصَ من ذلك الكَمِّ الكَبير، من المعلوماتِ والثَّقافاتِ والمعارفِ، التي جَمَعَتْها وحَصَّلَتْها عُقولُنا من مصادرِ المعرفةِ والثقافةِ الجاهليَّة، المخالفةِ لمقَرَّراتِ القُرآن، وأَنْ نتخفَّفَ من ذلك الحملِ العقليِّ الثَّقيلِ المُعيق.

- علينا أَنْ نَدْخُلَ عالَمَ القُرآنِ الرَّحيب دونَ مُقَرَّراتٍ عقليَّة مسبقَةٍ، وأَنْ نتعامَلَ مع حقائِقِه ومُقَرَّراتِه بيَقينٍ وتَسليمٍ، وأَنْ نَتَلَقَّاها منَ القرآنِ تَلَقِّيًا للتَّنفيذِ.

- علينا أن نُقْبِلَ على القرآنِ بصِدْقٍ وموضوعيَّةٍ وتَجَرُّدٍ، ونَطْلُبَ منه أَنْ يُشَكِّلَ لنا عُقولَنا، ويُكوِّنَ لنا ثَقافَتنا، ويُقَدِّمَ لنا العلمَ والمعرفة، ويوجِدَ لنا الأَفكارَ والآراء، التي نُدركُها بعُقولِنا، ونتفاعَلُ معها بقُلوبنا، ونتحركُ بها في حياتِنا.

والقرآنُ قادِرٌ على هذا، ومستعِدٌّ للقِيامِ بهذا، لكنَّه يُريدُ مِنّا هذا التجرُّدَ والاستسلام، وهذا التَّخَلِّي عن كُلِّ ما يناقِضُه، والتخلُّصَ من كُلِّ ما يُعارِضُه.

ولقد آنَ الأَوانُ أَنْ ننظرَ للصِّلَةِ بين العَقْلِ والقرآنِ هذه النَّظرة، وأَنْ نتعامَلَ مع القرآن على هذا الأَساس، وأَنْ نتخلَّصَ من ما يُعارِضُ ويُناقِضُ القرآن، من المعارِفِ والآراء.

* * *

ثاني عشر

القُرآن مهيمنٌ على ما سواه

• القُرآن مصدِّق للكُتب السَّابقة:

القرآنُ هو آخِرُ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَة، وقد سَبَقَهُ إِنزالُ كُتُبٍ سابِقَة، كالتَّوراةِ والزَّبورِ والإنجيل.

وقد جاءَ القرآنُ مُصَدِّقًا للكُتُبِ السَّماويةِ السَّابقة:

قالَ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقد أَمَرَ اللهُ اليهودَ بالإيمانِ بالقرآن؛ لأنه مُصَدِّقٌ لما معهم، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۞ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤١].

كما أَمَرَ اللهُ أَهْلَ الكتابِ كافَّةً بالإيمان بهذا القرآن؛ لأنه مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ والإنجيل، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧].

القرآنُ مُصدِّقٌ للكُتبِ السَّابِقَة، مُؤَيِّدٌ مُوافِقٌ لها؛ لأَنه مُنَزَّلٌ من عندِ الله؛ ولأَنَّ تلك الكُتُبَ قَبْلَه مُنَزَّلَةٌ من عندِ الله، فهو من كَلام الله، وهي من كَلامِ الله، وكلامُ اللهِ لا يُناقِضُ كَلامَ الله، ولا يُخالِفُه أَو يُكَذِّبُه.

التَّوراةُ حَقٌّ وصِدْقٌ؛ لأَنها كَلامُ اللهِ المُنَزَّلُ على موسى عليه الصلاة والسلام.

والإنجيلُ حَقٌّ وصِدْقٌ؛ لأَنه كلامُ الله المنَزَّلُ على عيسى عليه الصلاة والسلام. وعيسى عليه السلام جاءَ مُصدِّقًا للتَّوراة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

والقُرآنُ حَقٌّ وصِدْقٌ؛ لأَنه كَلامُ اللهِ المُنَزَّلُ على مُحَمَّدٍ ﷺ.

وتَصديقُ القرآنِ للكُتُبِ السَّابقةِ في العقيدةِ والتزكية، وفي الأَخبارِ والفضائل، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

أَمّا الأَحكامُ والتَّشريعات، والمناهجُ والنُّظُم، فلكُلِّ أُمَّةٍ شِرْعَةٌ خاصَّة بها، وكلُّ كِتابٍ من كُتُبِ اللهِ قَرَّرَ مِنهاجًا خاصًا به؛ قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

• القرآنُ مكذِّبٌ للكُتُبِ المُحَرَّفة:

ونقررُ أَنَّ هذه الحقيقة - تَصديق القرآنِ للكُتبِ السَّابقة - خاصَّةٌ بالكُتُبِ السَّابقَةِ قبلَ تَحريفِها وتَغْييرها وتَبْديلِها.

القرآنُ مُصَدِّقٌ ومُؤَيِّدٌ ومُوافِقٌ للتَّوراة، كَلامِ اللهِ الحَقِّ، المُنَزَّلِ على موسى عليه الصلاةُ والسلام، ولكنَّه ليسَ مُصَدِّقًا ولا مُوافِقًا للتَّوْراةِ المُحَرَّفَةِ المُبَدَّلَة، التي مَزَجَ فيها اليَهودُ الكافِرون كلامَ اللهِ بكلامِهم، ومَلَؤُوها بعباراتِ الكفرِ والتعصُّبِ والعنصرية.

والقرآنُ مُصَدِّقٌ ومُوافِقٌ للإنجيل، كَلامِ اللهِ الحَقِّ، المُنَزَّلِ على عيسى ابنِ مريم عليه الصلاة والسلام، ولكنَّه ليس مُصَدِّقًا للإنْجيلِ المُحَرَّفِ المُبَدَّل، الذي مَزَجَ فيه النَّصارى الكافِرونَ كَلامَ اللهِ بكَلامِهم، وجَعَلوا فيه المسيحَ عليه السلام ابْنًا لله!.

القرآنُ مُكَذِّبٌ للكُتبِ المُحَرَّفَةِ الآن، التي يَدَّعي أَصحابُها أَنها كَلامُ الله، وهو رافِضٌ للكُفْرِ والباطِلِ الموجودِ في التوراةِ المحَرَّفَةِ الآن، والإنجيلِ المُحَرَّفِ الآن، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [المائدة: ١٥].

لقد نَسَخَ القرآنُ الكُتُبَ السَّابِقَة، وأَلْغاها، وأَبْطَلَ مَفْعولها، وأَنهى مهمَّتَها، ومَنْ بَقِيَ مؤمنًا بها، كافِرًا بالقرآنِ مُنْكِرًا لَه، فهو كافِرٌ، ودينُه غيرُ مَقْبولٍ عندَ الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

• هيمنةُ القُرآن على الكُتب السَّماوية:

القرآنُ الكريمُ كَلامُ الله، وهو آخِرُ كتابٍ من كُتُبِ الله، ولذلك جَعَلَه اللهُ مُهَيْمِنًا على كُتُبِه السَّابِقة، وهذا يَقْتَضي أَنْ يكونَ مُهَيْمِنًا على غيرِها.

القرآنُ مُهَيْمِنٌ على سائِرِ الكُتبِ والمَناهج، والتَّشريعاتِ والنُّظُم، والدَّساتيرِ والقوانين، ولا بُدَّ أَنْ يكونَ فوقَها، وحاكِمًا عليها.

وقد أَخْبَرَنا اللهُ أَنَّ القرآنُ مُهَيْمِنٌ على ما سِواه، وَوَرَدَ هذا في سِياقِ آياتٍ توجِبُ الحكم بما أَنزلَ الله.

فلْنَتَدَبَّرْ معًا هذه الآيات:

قالَ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٥٠].

القرآنُ مُصَدِّقٌ لما قَبْلَه من الكتبِ الإلٰهيَّة، ومُهَيْمِنٌ عليها، وهو فَوْقَها وحاكمٌ عليها، ولذلك لا بُدَّ أَنْ تُحاكَمَ هي إليه، وأَنْ تُفْهَمَ على هَدْي آياتِه، وأَنْ تُعْرَفَ مواطِنُ التحريفِ والتَّبديل التي أَحْدَثَها اليَهودُ والنَّصارى فيها، عندما تُسَلَّطُ عليها أَنوارُه.

وإذا كانَ القرآنُ مُهَيْمِنًا على الكُتُبِ الإلٰهيةِ السَّابقة، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ مُهَيْمِنًا على ما سِواها من نتاجِ البَشَر، من بابِ أَوْلى.

القرآنُ يجبُ أَنْ يكونَ مُهَيْمِنًا على جَميع القَوانين والأنظمَةِ في بلادِ المسلمين، وعلى جَميعِ التشريعاتِ والأَحكام، وعلَى جَميعِ الدَّساتيرِ والمواثيق.. يجبُ أَنْ يكونَ فوقَ كُلِّ هذه، ولا يَجوزُ أَنْ يكونَ أَحَدٌ منها فَوْقَه، ويَجِبُ أَنْ تُحاكَمَ هي إليه، ولا يُحاكَمَ هو إليها، ويَجِبُ أَنْ تُصاغَ كُلُّها وِفْقَه، وأَن لا يُخالِفَهُ شَيْءٌ منها.

• القرآن فوق كل شيء:

في الدولَةِ الإسلاميةِ القرآنيةِ الصَّادقة، القرآنُ فوقَ كُلِّ شَيءٍ، ومُهَيْمِنٌ على كُلِّ شيءٍ، وحاكِمٌ على كلِّ شيءٍ.

في الدولَةِ الإسلاميةِ القرآنيةِ الصَّادِقَةِ لا تَرى نَصًّا أَو تَشْريعًا أَو قانونًا يُخالِفُ القرآن، ولا تَرى دُسْتورًا أو نِظامًا يرقى إلى مُسْتَوى القرآن، فَضْلًا عن أَنْ يَعْلُوَ فوقَ القرآن أَو يُهَيْمِنَ عليه.

الدَّولةُ الإسلاميةُ القُرآنيةُ الصَّادقةُ دستورُها هو القرآن، وهي تَصوغُ تَشْريعاتِها وقَوانينَهـا الإجرائيَّة من القرآن، وَتَسْتَمِدُّهَا من حقائقِ القُرآن.

الحاكمُ المسلمُ الصَّادقُ يَحكُمُ الرعيَّة بالقُرآن ويُطَبِّقُ عليهم أَحكامَ القرآن، ولا يَحكُمهم بأَيِّ تَشريعٍ أَو قانونٍ يُخالفُ القُرآنَ؛ لأَنه يَقومُ على الهَوى، وهو لا يَتَّبعُ أَهواءَهم، ولأَنَّهُ تشريعٌ وحُكْمٌ أَرضيٌّ جاهِليّ، وهو لا يُطَبِّقُ تَشريعات وأَنظمَةِ الجاهلية: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

هكذا كانَ الحالُ في الدَّولةِ الإِسلامية الأُولى في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثم في عَهْدِ الخلافَةِ الراشدةِ من بعْدِه، ثم في عهدِ الخلَفاءِ المسلمين من الأُمَويِّين والعَبَّاسيِّين، ومَنْ بَعْدَهم.

وأَيَّةُ دولةٍ لا تَجعلُ القُرآنَ فيها دستورَ الحكم، وأَساسَ القَضاء، ليسَتْ دولَةً إِسْلامِيَّة، وأَيَّةُ حُكومَةٍ لا تَجعلُ القرآنَ مُهَيْمنًا على كلِّ شيءٍ فيها وحاكمًا عليه، ليسَتْ حكومَةً إِسْلامِيَّة، وأَيةُ سُلْطَةٍ تَشْريعيَّة لا تَستمدُّ تَشريعاتِها وقَوانينَها من القرآن، ليسَتْ إِسْلاميَّة.

إِنها ستكونُ حينئذٍ جاهِلِيَّةً أَرضية، وليسَتْ قُرآنِيَّةً ربَّانية؛ لأَنه لا يوجَدُ إِلَّا نِظامانِ للحكم:

- نِظامٌ إِسْلاميٌّ قُرْآني، القرآنُ فيه مُهَيْمِنٌ على كُلِّ شيءٍ، ولا يُخالِفُه أَو يشارِكُه أَو يُساويه أَيُّ شيءٍ.

- ونِظامٌ أَرْضيٌّ جاهلي، دستورُه أو قانُونُه مُهَيْمِنٌ على القرآن، أَو شريكٌ له.

وصَدَقَ اللهُ القائل: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

* * *

ثالث عشر

القرآنُ والسُّلطان



أَصحابُ الحُكْمِ والسُّلْطانِ لا يُريدونَ أَنْ يَخْضَعوا خُضوعًا كامِلًا للقُرآنِ، ولا يُريدونَ أَنْ يَجْعَلوهُ مُهَيْمِنًا في بلادِهم على كُلِّ ما سِواه. ولذلك يَتعاملونَ مع القرآنِ بمزاجِيَّةٍ وهوًى؛ يأخذونَ منه ما يوافِقُ هواهُم، ويَتركونَ منه ما لا يُوافِقُ هَواهُمْ؛ ولذلك صِلَتُهم بالقرآنِ خاطِئة، وعلاقَتُهُم بالقرآنِ مَهزوزَة، تَنْتَهي إِلى الافتراق.

• مزاجية وهوى اليهود:

صِلَةُ الحكامِ والسَّلاطينِ بالقُرآنِ تقومُ على المزاجِيَّةِ والهَوى، كما هي صِلَةُ اليهودِ بالتَّوراة.

لم يَكُن اليهودُ ـ أحْبارُهم وعَوامُّهم ـ خاضِعينَ للتَّوْراةِ كتابِ الله، خُضوعًا صادقًا تامًّا مُخْلِصًا، ولم يَسْتَسْلِموا لها اسْتِسْلامًا كامِلًا، ولم يَتعامَلوا مع رُسُلِهم وأَنبيائِهم تَعامُلًا صَحيحًا، ولم يَتَّبِعوهم اتِّباعًا تامًّا.

لقد سَجَّلَ القرآنُ مِزاجيَّةَ وهَوى اليهود، في تَعامُلِهم مع أَنبيائِهم، وفي نَظْرَتِهم إِلى الأَحكامِ التي كَلَّفَهم اللهُ بها.

ومن مِزاجيَّتِهم مع الأنبياء، أَنهم كانوا يَنْظرونَ إليهم بِالهوى، فإذا وافقوا هَواهُم اتَّبعوهم، وإذا لم يُوافِقوا هَواهم يَسْتكبرون عليهم، ولا يَخْضعونَ لهم، فيُكَذِّبونَ فَريقًا من هؤلاء الأنبياء، ويَتَجَرَّؤُون على قَتْلِ فَريقٍ آخَرَ منهم.

وهذا ما سَجَّلَه القُرآنُ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

بهذا الهَوى تعامَلوا مع نَبِيِّهم الأَوَّل، موسى عليه الصلاة والسلام، فلما أَمَرَهم بالسَّمْعِ والطَّاعَة، أَعْلَنوا العِصْيان؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وانْطِلاقًا من هَذا الهوى المُرْدي، كانَ أَحبارُهم يُحَرِّفونَ كَلامَ الله، ويَمزجونَه بكلامِهم، ليَشْتَروا به ثَمَنًا قليلًا؛ قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وبسببِ ذلك كُلِّه، سَجَّلَ القرآنُ أَنَّهم آمَنوا ببعضِ كتابِ اللهِ النازلِ إليهم، وكَفَروا ببعْضِه الآخَر؛ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

لقد كَتَمَ أَحْبارُ اليهودِ الحَقَّ، ولم يُنَفِّذوا عَهْدَ اللهِ لهم بالبَيان، وخَلَطُوا الحَقَّ بالباطِل، وتَقَرَّبوا من أَصحابِ الحُكْمِ والسُّلْطان،

وحَرَصوا على إرْضائِهم على حِساب الحَقِّ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولقد أَخْبَرَ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ بما عليه اليهودُ من مِزاجيَّةٍ وهَوًى، وحَذَّرَهُ من اتِّباعِ أَهوائِهم، وأَمَرَه بالحكْمِ بينَهم بما أَنزلَ إِليه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ونهى اللهُ المسلمين عن الاقْتداءِ باليهودِ بالهَوى والمزاجيّة، فقالَ تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

• وجوب الخضوع لحكم الله:

المؤمنونَ يَتعاملونَ مع كتابِ اللهِ بخُضوعٍ والْتِزام، وتَطبيقٍ وتَسْليم، وهي الصورَةُ المقابلةُ لنظرةِ اليهودِ للتوراة.

اليهودُ تعامَلوا مع التوراةِ بهَوًى ومِزاجِيَّة، والواجبُ على المسلمين أَنْ يَتَعاملوا مع القرآنِ بتَسليمٍ والتزام.

واليهودُ قَرْطَسوا التَّوراة، فأَظْهَروا قِسْمًا منها، وأَخْفَوا أَقْسامًا، على أَساسِ الهوى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

وبالمقابلِ لا يَجوزُ للمسلمين أَنْ يُقَرْطِسوا القرآن، بمعنى: أنه

لا يَجوزُ لهـم أَنْ يَقْبَلوا ويَأْخُذوا بعـضَ أَحكامِ القُـرآن، وأَنْ يَرْفُضوا ويَتْرُكوا بَعْضًا منها.

أَوجبَ اللهُ عليهم الخضوعَ لحكم الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وجعلَ اللهُ الخضوعَ لحكْمِه من لـوازمِ الإيمان، والتمردَ عليه ناقِضًا للإيمان: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يُقْسِمُ اللهُ في هذه الآية على أَنَّ الإيمانَ لا يتحقَّقُ إِلَّا بعدَ أَنْ يُحَكِّم أَصحابُه الرَّسولَ ﷺ فيما شَجَرَ ونَشَبَ بينهم، وإِلا بَعد أَنْ يَحتكموا إِلى حُكْمِ الله.

وليس المطلوبُ مُجَرَّدَ الاحتكامِ إِلـى حُكْمِ الله، بـل المطلوبُ الاحتكامُ لشَـرعِ الله أَوَّلًا، ثم الرضا النفسيُّ والتسليمُ القلبيُّ بحكْمِ الله، وعَدَمُ النفورِ منه والكراهيةِ له، ثم الاستسلامُ لِحكْمِ الله، والحرصُ على الالتزامِ به وتنفيذِه.

• رفض حكم الله كفر ونفاق:

الذيـنَ لا يَحتكمونَ إِلى حكـمِ الله مُنافقون غيـرُ مؤمنين، والذين لا يَرْضَوْنَ بحكْمِ اللهِ كافرون غيرُ مؤمنين.

قالَ اللهُ عن رَفْضِ المنافقينَ الاحتكامَ إِلى اللهِ ورسـولِه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا

دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥١].

عدمُ الاحتكامِ إلى حُكْمِ الله، وعَدَمُ القَبولِ بحكْمِ الله، وإنْكارُ حُكْمِ اللهِ والتمردُ عليه، كُفْرٌ ونِفاقٌ، يُخْرِجُ صاحِبَه من الإسلام، وإنْ صامَ وصَلّى وزَعَمَ أنَّه مُسْلم، هذا ما تُقَرِّرُه الآياتُ السَّابقة، وغيرُها من الآيات.

فإذا كانَ هذا حالُ مَنْ رَفَضَ حُكْمَ اللهِ وأنْكَرَه من المحكومين المُتحاكِمين، فكيفَ يكونُ حالُ مَنْ شَرَّعَ غيْرَ حُكْمِ اللهِ، وأَمَرَ بغيرِ حُكْمِ الله، وأَمَرَ بالتحاكمِ إلى غيرِ حُكْمِ الله، وألْزَمَ رعيَّتَه بالتَّحاكُمِ إلى قوانينَ وتَشريعاتٍ مخالِفَةٍ لحُكْمِ الله، جَعَلَها قوانينَ وأَنظمةً وتَشْريعات، رسميَّةً شرعيَّةً قانونيَّةً دستوريَّة؟!.

إنَّ الحاكِمَ الذي يَتَّصِفُ بهذا ويَقومُ به ويُمارسُه، يَنقضُ إسْلامَه المَزْعوم، ويَخرجُ من دينِ اللهِ، وَينتقلُ إلى الكفرِ والنفاق.

• ما هو الكفر التَّشريعي؟:

إنَّ إقرارَ أنظمةٍ وتشريعاتٍ وقوانينَ مُخالفة لحُكْمِ الله، وجعْلَها أَنظمةً رَسْميَّةً للدَّوْلَة «كُفْرٌ تَشْريعيٌّ» يَجعلُ مَنْ يقومُ بذلك كافِرًا وظالِمًا وفاسِقًا، كما تُقَرِّرُ آياتُ كِتابِ الله، التي يَعْرِفُها كُلُّ مسلم:

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وإذا جازَ خِلافُ العلماءِ في مَدْلولِ هذه الآياتِ في الذي يَحتكمُ إلى غيرِ حُكْمِ الله، وفي القاضي الذي يُنَفِّذُ غيرَ حُكْمِ الله، ويَحْكُمُ في المحكمةِ بغَيْرِ حُكْمِ الله، حيثُ يُكَفِّرُ بعضُ العلماءِ ذلك المتحاكِمَ مُختارًا لغيرِ حُكْمِ الله، ويُكَفِّرُ بعضُ العلماءِ ذلك القاضي الذي يُنْكِرُ حُكْمَ الله، ويَحْكُمُ بغيرِه.

أَقول: إذا جازَ الخِلافُ في كُفْرِ ذلك المتحاكمِ وذلك القاضي، فلا يَجوزُ الخِلافُ في كُفْرِ ذلك الحاكِمِ الذي يُشَرِّعُ غَيْرَ حُكْمِ اللهِ، ويُقِرُّ حُكْمَ غَيْرِ الله، ويَسُنُّ تشريعاتٍ وقوانين ونُظُمًا ومُناهِجَ على الرَّعيَّة، تُخالِفُ حُكْمَ الله، ويجعَلُها قانونيَّةً شرعيَّةً دُستوريَّة! ويُلزمُ الرعيةَ بالتَّحاكمِ إليها.

إنَّ هذا السُّلْطانَ والحاكمَ يَقومُ بكُفْرٍ تَشريعيٍّ، وفَرْقٌ بين الكُفْرِ التَّشريعِيِّ الذي لا خِلافَ في كُفْرِ صاحِبِهِ، وبينَ الكُفْرِ القضائِيِّ في القاضي والمُتَقاضي الذي لا يَكْفُرُ إلَّا بِشُروط!.

• انفصال السُّلطان عن القُرآن:

بناءً على ما سَبَق، صارَ السَّلاطينُ والحُكَّام يَنْظرونَ إلى القرآنِ بهَوًى، ويَتَعاملونَ معه بمزاجيَّةٍ، كما تعامَلَ اليهودُ مع التَّوراة، وصارَ هؤلاء الحُكَّامُ والسَّلاطينُ يَأْخُذونَ من أَحْكامِ القُرآنِ ما يُوافِقُ هواهم، ويَتركونَ منها ما لا يُحَقِّقُ مَصالِحَهم الذَّاتِيَّة! ومن ثَمَّ «قَرْطَسوا» أحكامَ

القُرآن، فأَظْهَـروا قَليلًا منها، وأَخْفَوْا منها كثيـرًا، وآمنوا بِبَعْضِ أَحكامِ القُرآن، وكَفَروا ببعضٍ، وبذلك كانوا كافِرينَ ظالِمينَ فاسِقين.

ونَتيجَةً لذلـك حَصَلَ الانفصـالُ بينَ القُـرآنِ والسُّـلْطان، ووقَع الاختراقُ بينَ القرآنِ والسُّـلْطان، فتخلَّى السُّـلطانُ عن القرآن، وأَقْصى القرآنَ عن مُؤَسَّساتِ النظام الذي يحكُمُه، وأَقَرَّ ما يُخالِفُه من التَّشريعاتِ الجاهليةِ الأَرضيَّة.

• وجوب الدَّوران مع القرآن:

هذا ما أَخبرَ عنه رسـولُ الله ﷺ، حيثُ أَعْلَمَه اللهُ بما سـيحصلُ في المستقبل، من الافتراقِ بينَ السُّلطانِ والقُرآن.

روى إِسـحاقُ، وأَحْمَدُ بـنُ مَنيعٍ: عـن مَعاذِ بـنِ جَبَل رضي الله عنه، عن رسـولِ اللهِ ﷺ، قال: «**خُذُوا العَطاءَ ما دامَ عَطاءً، فإذا صارَ رشْـوَةً على الدِّين فلا تَأْخُذُوهُ، ولَسْـتُم بتارِكيهِ، فيمنَعُكُم من ذلك المخَافَةُ والفَقْر. أَلا إِنَّ رَحـى الإِيمانِ دائِرَة، فَـدورُوا مع الكتابِ حيثُ يَـدور. أَلا وإِنَّ السُّـلْطانَ والكتابَ سَـيَفْتَرِقان، أَلا فلا تُفارِقوا الكِتاب. أَلا إِنه سيَكونُ عليكم أُمَراء، إِنْ أَطَعْتُموهم أَضَلُّوكُـم، وإِنْ عَصَيْتُموهم قَتَلوكُم**» قالوا: فَكيفَ نصْنَعُ يا رَسـولَ الله؟ قال: «**كَمَا صَنَعَ أَصْحابُ عِيْسَـى، حُمِلُوا عَلَى الخُشُبِ، ونُشِرُوا بالمَنَاشِيرِ، مَوْتٌ في طَاعَةِ اللهِ، خَيْرٌ مِنْ حَياةٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ**»[1].

---

(١) المطالبُ العاليةُ بزوائدِ المسانيدِ الثمانية، لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الرحمن الأعظمي: ٢٦٧/٤ ـ ٢٦٨، حديث رقم (٤٤٠٨).

وهـذا الحديثُ معجـزةٌ من مُعْجزاتِ رسـولِ الله ﷺ، فقـد افْتَرَقَ السُّلطانُ والقُرآنُ في العصرِ الحديث، وهَجَرَ السُّلطانُ في بلادِ المسلمين القُرآنَ، وطَبَّقَ على النَّـاسِ أَحكامَ الجاهِليَّة، وأَقصى القرآنَ عن الوجودِ الفعليِّ المُؤَثِّرِ في حَياةِ النَّـاس، ودَعا النَّاسَ إِلى طاعَتِه في معصيةِ الله، وفي تَحليلِ ما حَرَّمَ الله، وتَحريمِ ما أَحَلَّ الله.

وهُنا يُقَدِّمُ لنَا رسـولُ اللهِ ﷺ هذه الوَصيَّةَ الجامِعَة، ويَأْمُرُنا أَنْ نَدورَ مع القرآنِ حَيْثُ دارَ، ونَسـيرَ معه حَيْثُ سـارَ، وأَنْ نَنْحـازَ إِلى جانِبِ القرآن، عندما يَفْتَرِقُ عنه السُّـلْطان، وأَنْ نَبْقى تَحْـتَ لواءِ القُرآن، وأَنْ نَسْتَمِرَّ في ظِلالِ القرآن، وأَنْ لا نُطيعَ الأمراءَ والسَّلاطينَ في معصيةِ الله، وأَنْ نَصْبِـرَ على كلِّ ما نُلاقيه مـن بَغْيِهم وظُلْمِهم، مُقابِـلَ ثَباتِنا على القُرآن، ودورانِنَا معه حَيثُ يَدورُ، حتَّى ولو أَدَّى ذلك إِلى القَتْلِ وإِزهاقِ الرُّوح، فلنا قُدْوَةٌ بالحَوارِيِّين المُؤْمنين، أَتْباعِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَنْ نوقِنَ أَنَّ المَوْتَ في سـبيلِ الله، دِفاعًا عن القرآن، خَيْرٌ مـن حياةٍ في معصيةِ الله، ولو أَدَّتْ إِلى رِضَا السُّلْطان!.

❊ ❊ ❊

رابع عشر

القرآنُ عاصمٌ عند الفتن



• كثرةُ الفتن وتتابعها:

أَخْبَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ هذه الأُمَّةَ سَتُبْتَلى بابتِلاءاتٍ عَديدَةٍ، وستُفْتَنُ بفِتَنٍ كَثيرة، حيثُ ستَتَتابَعُ عليها الفِتَن، وتَتَلاحَقُ وتَزْدادُ.

وحَذَّرَنا من الافتتانِ بتلك الفِتَن، والسُّقوطِ فيها، وطالَبَنا أَنْ نَبقى ثابتين على الحَقِّ، مُعْتَصِمين بحَبْلِ اللهِ، مُلْتَزِمين بهذا الدِّين.

١ ـ فقد رَوى البخاريُّ ومسلمٌ: عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**سَتكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، والقَائِمُ فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، والمَاشِي فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي. مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، ومَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَو مَعاذًا فلْيَعُذْ بِهِ**»[1].

٢ ـ وروى مسلمٌ والترمذيُّ: عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «**بادِروا بالأَعمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤمنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، ويُمْسِي مُؤْمِنًا ويُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيْعُ دِيْنَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[2].

---

(١) رواه البخاريُّ في كتابِ الفِتَن، باب تكونُ فِتْنَةٌ القاعِدُ فيها خَيْرٌ من القائِم، حديث رقم (٣٦٠١). ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب نزول الفتن، حديث رقم (٢٨٨٦).

(٢) رواه مسلمٌ في كتابِ الإِيمان، باب الحَثّ على المبادرَةِ بالأعمال، حديث رقم (١١٨). والترمذي في كتاب الفتن، باب ستكون فتن، حديث رقم (٢١٩٦).

٣ ـ وروى مسلمٌ وَأبو داود والنَّسائيُّ: عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: كُنّا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ، فَنَزَلْنا مَنْزِلًا، فَمِنا مَنْ يُصْلِحُ خِباءَه، ومِنَّا مَنْ يَنْتَضِل، ومِنَّا مَنْ هو في جَشَرِه.. إذْ نادَى مُنادي رسولِ اللهِ ﷺ: الصَّلاةُ جامِعَة. فاجْتَمعْنا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: «**إنَّهُ لَمْ يَكُنْ نبيٌّ قَبْلِي، إلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ ما يَعْلَمُهُ لَهُمْ، ويُنْذِرَهُمْ شَرَّ ما يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وإنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جَعَلَ عافيَتَها فِي أَوَّلِها، وسَيُصِيبُ آخِرَها بَلاءٌ، وَأُمُوْرٌ تُنْكِرُوْنَهَا، وَتَجِيءُ فِتَنٌ، فيُرَقِّقُ بَعْضُها بَعْضًا، وتَجيءُ الفِتْنَة، فيَقُوْلُ المُؤْمِنُ: هَذِه مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ. وتَجِيءُ الفِتْنَةُ، فيَقُوْلُ المُؤْمِنُ: هَذِهِ، هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ، فَلْتأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وهو يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتى إِلَيْه...**»[1].

٤ ـ وروى البخاريُّ ومسلمٌ: عن حذيفةَ بن اليمانِ رضي الله عنه، قال: كَانَ النَّاسُ يسأَلونَ رسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخيْرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مخافَةَ أَنْ يُدْرِكَني، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنّا كُنّا في جاهِلِيَّةٍ وشَرٍّ، فجاءَنا اللهُ بهذا الخَيْر، فهلْ بعدَ هذا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نعم**».

قلتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قال: «**نَعَم، وَفِيْهِ دَخَنٌ**».

قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قالَ: «**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْتَدُوْنَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُم وتُنْكِر**».

فقلتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ من شَرّ؟ قالَ: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجابَهم إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيْهَا**».

---

(١) رواه مسلم في كتابِ الإمارة، باب وجوب الوفاءِ بالبَيْعَة، حديث رقم (١٨٤٤). ورواه أَبو داود في كتابِ الفِتَن، باب ذِكْر الفتن ودلائِلها، حديث رقم (٤٢٤٨). ورواه النَّسائي في كتابِ البَيْعَة، باب ذكر منْ بايَعَ الإمام، حديث رقم (٤٢٠٢).

فقلْتُ: يا رسولَ الله! صِفْهُم لنَا. قال: «**قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنا، وَيَتكلَّمُوْنَ بِأَلْسِنَتِنا**».

فقلتُ: يا رسولَ الله! فما تَأْمُرُني إِنْ أَدْرَكَني ذَلِكَ؟ قال: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِيْنَ وَإِمَامَهُم**».

قُلتُ: فإِنْ لم يَكُنْ لهم جَماعَةٌ وَلا إِمَام؟ قال: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّها، وَلَوْ أَنْ تَعضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ، وأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[١].

ونختمُ هذه الأَحاديثَ بهذا الحديثِ الجامعِ الَّذي يَأْمُرُ بِمَناعَةِ القَلْبِ عندَ وُقوعِ الفِتَن، وعَدَمِ قَبولِه لها، وإِنكارِها ورَفْضِها:

٥ ـ روى مسلمٌ: عن حُذَيْفَةَ بنِ اليَمان رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيْرِ، عُوْدًا عُوْدًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ. وأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيْهِ نُكْتَةٌ بَيْضاء، حَتَّى تَصِيْرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَبيضَ مِثْلِ الصَّفا، فَلَا تَضُرُّه فِتْنَةٌ ما دَامَتِ السَّمواتُ والأَرْضُ، والآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبادًّا، كَالكُوْزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا ما أُشْرِبَ من هَوَاهُ**»[٢].

• إنكارُ قَلب المُؤمن للفِتَن:

تتتابَعُ الفِتَنُ على قُلوبِ المسلمين كتتابُعِ واجْتِماعِ عيدانِ الحَصير، والقَلْبُ الَّذي يَتَشَرَّبُها ويَقْبَلُها ويَرضَى بها، تُؤَثِّرُ فيه تَأْثيرًا سَلْبِيًّا،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب كيف الأمر إن لم تكن جماعة، حديث رقم (٣٦٠٦). ورواه مسلم في كتاب الإمارة، بابُ وجوبِ ملازمةِ جَماعَةِ المسلمين، حديث رقم (١٨٤٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، حديث رقم (١٤٤).

فَتنْكُتُ فيه نُقطَةٌ سَـوْداء، وكلَّما ازدادَ قَبولُ هذا القَلْبِ المفتونِ للفِتَن المتتابِعَة، اِزْداد انتشارُ النُّقاطِ السُّودِ عليه، حتَّى تَأْتِيَ عليه، وتَعُمَّه كُلَّه، وتَطْمِسَ نورَه، فيكونُ أَسْـوَدَ مُظْلِمًـا، أَغْبَرَ مربادًا، ويكونُ منكوسًـا مَقْلوبًا كالكُوز.

وَيَتعامَلُ مع كُلِّ شـيءٍ بمنطِقِ هَواه، فهو الحَكَمُ والميزان، ولذلك لا يَعْرِفُ مَعْروفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا ما وافَقَ هواه.

أَمّا القَلْبُ الحَيُّ السَّـليمُ المسـتقيمُ، فهو الذي يَرْفُضُ تلك الفِتَنَ، ويُنْكِرُها، ويُحارِبُهـا ويُواجِهُها، فتكونُ فيه آثـارٌ إِيجابيَّة لذلك، حيث تَنْكُتُ فيه نُقْطَةٌ بيضاء مُنيرَةٌ مُشـرِقَةٌ، وكلما ازدادَ رفضُه وإِنكارُه لتلك الفِتَن، ازدادَ انتشـارُ النقـاطِ البيضاءِ عليـه، حتَّى تَغْمُـرَه كُلَّه بنورِها وإِشْراقِها، فيكونُ أَبيضَ نَظيفًا ناصِعًا، ويكونُ مُنيرًا مُشْرِقًا، ويكونُ ثابتًا مثل الحَجَرِ الرَّاسخ، والصَّفاةِ الثَّابتة.

• أسباب كثرة الفِتَن في هذا الزَّمان:

وعندما ننظرُ في هذه الأَحاديـثِ الصحيحة، فإِنَّنا نراها تنطبقُ علينا في هذا الزَّمان تَمامَ الانطباق.

فقد تَتَابَعت الفِتَنُ علينا، وهَجَمَتْ هُجومًا شامِلًا، وهي فِتَنٌ مُنَوَّعَة، تَشْـملُ جميعَ الجوانبِ والمجالاتِ؛ فمنها ما هو مُوَجَّهٌ للقُلوب، ومنها ما هو مُوَجَّهٌ للعُقـول، ومنها ما هو مُوَجَّهٌ للأَخـلاق، أَو الأَعراض، أَو الأَموال، فِتَنٌ سِياسِيَّة، وفِتَنٌ اقتصاديّة، وفِتَنٌ اجتماعيَّة، وفِتَنٌ فنِّيَّة، وفِتَنٌ فكريَّة، وفِتَنٌ سلوكيَّة، وفِتَنٌ للرِّجال، وفِتَنٌ للنِّساء، وفِتَنٌ للعُلماء، وفِتَنٌ

للحُكَّام، وفِتَنٌ للشَّباب، وفِتَنٌ تَعْرِضُها الإذاعات، وفِتَنٌ في الصُّحُف، وفِتَنٌ في الأَشْرِطَة والأَفْلام، وفِتَنٌ في الكُتُب، وفِتَنٌ في البيُوت أو الأسواق، أو المؤسَّسات، وفِتَنٌ وافِدَةٌ، وفتَنٌ محلِّيَّة، وفِتَنٌ يَنْشُرُها أَبناءُ الأُمَّة، وفِتَنٌ يَنْشُرُها الآخَرون.

وكانَ اللهُ في عونِ الناس!.

وَصَدَقَ القائل:

فَلو كانَ سَهْمًا واحِدًا لاتَّقَيْتُهُ ... وَلَكِنَّهُ سَهْمٌ وَثانٍ وثالِثُ

وهناك عِدَّةُ أَسْبابٍ لكَثْرَةِ الفِتَنِ الموجَّهَةِ لهذه الأُمَّةِ في هذا الزَّمان:

١ ـ أَهَمُّ هذه الأَسبابِ هو: **إقْصاءُ الإسلامِ عن الوجودِ الفعلِيِّ المُؤَثِّر في حَياةِ المسلمين، وإِحْلالُ التَّصَوُّراتِ والنُّظُمِ الجاهليةِ مكانَه، وتَحَكُّمُها في حياتِهم.**

لقد وُجدت أنظمة في بلاد المسلمين، لا تحكم بشرع الله، ولا تحكِّم دينه، وإنَّما تحكم الناس بالنظم والتشريعات الجاهلية.

وهذه الأَنظمة، لم تُحَصِّنْ شُعوبَها تَحْصِينًا إِسْلاميًّا أَمامَ الفِتَنِ الوافِدَة الغازِيَة، ولم تَعْمَلْ على تربيةِ هذه الشُّعوبِ تَربيةً قُرآنِيَّة، ولم توجِدْ عندَهم المناعَةَ الإيمانيَّة، وإِنما كانتْ هذه الأَنظمةُ محارِبَةً للقِيَمِ الإيمانية والحقائِقِ القرآنية، والأُسُسِ الإسلامية، وكانت عامِلَةً على التمكينِ للفتنِ الوافِدَةِ في قُلوبِ وحياةِ المُسلمين، ناشِرَةً لها بَيْنَهم.

وصَدَقَ في مسؤولي هذه الأَنظمة قولُ الشاعر:

لا يُلامُ الذِّئْبُ في عُدْوانِهِ ... إِنْ يَكُ الرّاعي عَدُوَّ الغَنَمِ

٢ ـ ومن أَسـبابِ كَثْرَةِ الفِتَن أَيْضًـا: **تَحَكُّمُ الجاهليـةِ في العالَم**، وقِيادَتُهـا لِلبَشـرية، وبخاصَّةٍ في رَأْسَـيْها: الرَّأْسِ الصَّليبيِّ الشَّـيطانيِّ المتمثِّلِ الآنَ في أَمريكا، والرأْسِ اليهوديِّ الشَّيطانيِّ المتمثلِ في تحكُّمِ اليهودِ في العالَم، وإِنشاءِ دولَتِهم على أَرض فلسطين.

لقد تَفَنَّنَ شَـياطينُ اليهودِ والصَّليبيِّين الجاهليِّين فـي ابتداعِ الفِتَنِ وتَصْنيعِها وتَزْويقِها وتَجميلِها وتَكْثيرِها، وخِداعِ السُّذَّجِ بها، وغُرورِهم بها.

٣ ـ ومنَ الأَسـبابِ أَيْضًا: **التقـدُّمُ المادِّيُّ والعلمـيُّ والتكنولوجيُّ المعاصِر**، الذي نَتَجَ عنه إِنْتاجُ العَديدِ من الوسائِلِ الإِعلانيَّةِ والإِعلامية، التي لم تَكُنْ تَخْطُرُ على بالِ أَحَدٍ، واسـتخدامُ هذه الوسـائلِ كأَدواتٍ للتَّغْريرِ والخِداع، والتَّأْثيرِ في الآخَرين.

٤ ـ ومن هذه الأَسْباب: **ضَعْفُ التَّربيةِ الإِسلاميةِ في بلادِ المسلمين**، وقُصورُ مناهجِ التَّربيةِ في المُؤَسساتِ التَّربويَّةِ والتَّعليمية، وعَجْزُها عن التأثيرِ النَّافعِ القويِّ في الأَجيالِ الناشِـئَةِ، التي تخرجُ دون تربيةٍ مُؤَثِّرَة، أَو حصانَةٍ قويَّة.

٥ ـ ومن هذه الأَسـباب: **ضَعْفُ الصِّلَةِ بالله، وعَـدَمُ اللُّجوءِ والفرارِ إِليه**، وعَدَمُ العَوْذِ به، وعَدَمُ الاعْتِصام بِحَبْلِه المتين، ودينِه القَويم.

٦ ـ **وضَعْفُ الصِّلَةِ بالقُرآن**، والإِقبـالِ عليه، والتعامُل معه، والحياةِ في ظِلالِـه، والحركةِ به، ممـا أَدّى إِلى تَضييعِ الهويـةِ لهذه الأَجيال، وتَغْبيشِ نَظْرَتِها، وفقدانِها لمحوَرِها الثَّابِت، وأَساسِها الراسِخ.

• القُرآن هُو العاصم عندَ الفتن:

أَمامَ هذا الواقِع القائِم، وهذه الفتنِ الغازِيَـةِ المتتابعة، فإنَّ النجاةَ منها لا تكونُ إلَّا بالفـرارِ إلى الله، وإبْقاءِ القلبِ فـي مَناعَةٍ وحَصانَة، مُنْكِرًا لهذه الفِتَنِ رافِضًا لهـا، ليُحافِظَ على إشْـراقِه وضِيائِه، وَطُهْرِهِ وحَياتِه.

والوسـيلةُ الناجحةُ لهذا هي الإقْبالُ على القرآن، وإحْسـانُ تِلاوَتِه وَفَهْمِه وَتَدَبُّرِه، وصِدْقُ تَفْسـيرِه وتأْويلِه، وسَـعادةُ الكيـانِ بالعَيْشِ في ظِلالِه، والحمْلُ الصّادِقُ للقُـرآن، والحركَةُ به، ونَشْـرُ عُلومِه ومَعارِفِه وحَقائِقِه وبَصائِرِه.

إنَّ العاصِمَ عنـد الفِتَنِ هو كَلامُ الله، والمخْـرَج منها هو كِتابُ الله، والمَناعَة والحَصانَة أَمامَها بكتابِ الله.

وهذا ما قَرَّرَهُ الخليفَةُ الراشِدُ عَليُّ بنُ أَبي طالبٍ رضي الله عنه.

فقد روى الترمذيُّ: عن الحارثِ الأَعْوَرِ، قال: مَرَرْتُ في المِسْـجِد، فإذا الناسُ يَخوضونَ في الأَحاديـث، فدخَلْتُ على عَلِيٍّ فأَخْبَرْتُه، فقال: أَوَقَدْ فَعَلوها؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قالَ: أَلا إِنَّها سـتكونُ فِتْنَـة، والمَخْـرَجُ منها كِتـابُ الله؛ فيه نَبَأُ ما قَبْلَكُم، وخَبَرُ ما بَعْدَكُم، وحُكْمُ ما بَيْنَكُم، هو الفَصْلُ لَيس بالهَزْلِ، مَنْ تركَه من جَبّـارٍ قَصَمَه الله، ومَن ابْتَغى الهُدى فـي غَيْرِه أَضَلَّه الله، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتيـن، وهُوَ الذِّكْرُ الحَكيمُ، وهوَ الصِّراطُ المُسـتقيم، وهو الَّذي لا تَزيغُ به الأَهْواءُ، ولا تَلْتَبِسُ به الأَلْسِـنَة، ولا يشـبعُ منهُ

العُلَماء، ولا يَخْلَقُ عن كَثْرَةِ الـرَّدِّ، ولا تَنْقَضي عَجائِبُه، وهو الذي لم تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سمعَتْه حَتَّى قالُوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١]. مَنْ قالَ به صَدَق، ومَنْ عَمِلَ به أُجِرَ، ومَنْ حَكَمَ به عَدَلَ، ومَنْ دَعا إِليه هُدِيَ إِلى صِراطٍ مستَقيم[١].

لقد كانَتْ نَظَراتُ عَلِيّ بنِ أَبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نافِذَةً، وهو يَصِفُ القرآنَ بهذه الصفات، وهو يُدْرِكُ هذه المهمةَ الحَيَّةَ للقرآن.

وندعو إِلى ملاحظةِ هذهِ الصِّفات، وتَوَفُّرِها في القُرآن، ونحنُ نَتْلوهُ ونتدبَّرُه، ونحنُ نعتصمُ به ونَعيشُ في ظِلالِه.

المهم أَنَّ عليَّ بن أَبي طالـبٍ يُقَرِّرُ لنا أنَّ المخـرجَ من الفِتَنِ هو كتابُ الله، والعاصِمُ منها هو القرآنُ.

وبما أَنَّ عَصْرَنا هو عَصْرُ غَزْوِ الفِتَنِ للمُسلمين، فلا بُدَّ لنا من صِدْقِ العَودَةِ للقُرآن، وإِحسانِ التَّعامُلِ معه، وتوثيقِ الاعتصامِ به.

لماذا القرآنُ هو العاصِمُ عند الفِتَنِ، والمَخْرَجُ منها؟:

١ ـ لأَنَّ القرآنَ يَصوغُ المؤمنَ صياغَةً قرآنِيَّة، فيُخَرِّجُه رَجُلًا ثابتًا، صَلْبًا، عزيزًا، كريمًا، يَستعصي على الافْتتان، ويَسْتَعْلي على الفِتَن!.

٢ ـ ولأَنَّ القرآنَ يُبَصِّرُ المؤمنَ ببصائِرِه القرآنيةِ الهادِية، فيكشـفُ له حقيقَةَ أَعْدائِه، وأَسْلحتَهم ووسائلَهم ومكائدَهم ضدَّه، فلا تغبُشُ

---

(١) الترمذي، كتابُ ثَوابِ القرآن، باب فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٨). وانظرْ تَعْليقَ الترمذيِّ عليه، بأَنَّ في إِسْنادِه مجهول، وفي الحارثِ الأَعْوَرِ مَقال، ولذلك لا يَصِحُّ رَفْعُه لرسولِ اللهِ ﷺ، والراجحُ أَنه موقوفٌ على عَلِيّ بنِ أَبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

نظرَتُـه، ولا تُظْلِـمُ طريقُـه، ويُواجهُ هـؤلاء الأَعْداءَ علـى بَيِّنَةٍ وبَصيرةٍ!.

٣ ـ **ولأَنَّ القُرآنَ يُحَذِّرُ المؤمنَ من الافتتانِ بالفِتن**، حيثُ يُعَرِّفُه عليها، وعلى أُسُسِـها وخَلْفِيَّتِها، ويكشِـفُ له سِـرَّها وزُخْرُفَهـا، ويُريهِ غُرورَها وخِداعَها، ويكسـبه بذلك المناعـة والحصانة، فلا يقع صريعًا لها.

٤ ـ **ولأَنَّ القرآنَ يَربطُ نَظَرَ المؤمنِ بالآخِـرَة**، ويجعلُه يَعيشُ حياتَه في الدُّنيا غيرَ مُغْتَرٍّ بها، وإِنَّما أَشواقُه ونظراتُه وآمالُه موجَّهَةٌ إِلى الجنّةِ ونعيمها وخيراتِها.

٥ ـ **ولأَنَّ القرآنَ يُعـرِّفُ المؤمنَ على هَدَفِهِ من الحياة**، وعلى وسـائِلِه لتحقيقِ هذا الهدف، وعلـى مهمَّتِه ووظيفتِه في هـذه الحياة، فلا يَعودُ مَفْتونًا بتلك الفِتَن.

٦ ـ **ولأَنَّ القرآنَ يوجِّـهُ المؤمنَ إِلى مواجهةِ الجاهليـة**، وتَحَدّي الكفر والباطل، ويَقومُ بتهيئَتِـه للمعركة، وتعبئَةِ قُواه وحَشْـدِها للجِهاد، فينوي هذا المؤمنُ مواجهةَ الفِتَـنِ وأَصحابِها، ويتعاملُ معها بيقَظَةٍ وبَصيرةٍ واستعلاءٍ.

وإِذا كانَ القرآنُ يَفْعَلُ هذا بالمؤمن، ويحقِّقُه فيه وفي حياتِه، فكيفَ يسقطُ هذا المؤمنُ الواعي البصيرُ صريعَ فِتْنَةٍ؟!.

ولهذا نوقِنُ أَنَّ القـرآنَ وَحْدَه هو المَخْرَجُ مـن الفِتَن، والعاصِمُ منها.

• الاستمساك بالقُرآن:

القُرآنُ هو المخرجُ من الفِتَن، وهو العاصِمُ منها، وهو العُروةُ الوثْقى من اللهِ لعبادِه، قَدَّمَه إليهم ليَستمسِكوا به.

وقد أَخْبَرَنا اللهُ بهذا، وأَرشَدَنا إلى الاستمساكِ به، والنظرِ إليه بهذا الاعتبار.

أَخْبَرَنا اللهُ بأَنَّ المسلمَ المحسِنَ المستسلِمَ للهِ هو المستمسكُ بالعُروةِ الوُثقى المقَدَّمةِ له منَ اللهِ، المتمثِّلَةِ بكتابِ اللهِ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وهذا المؤمنُ المحسنُ المستسلمُ للهِ، لا بدَّ له من أَنْ يكفُرَ بالطَّاغوتِ، ويواجِهَ الباطِل، ويستعلي على الفِتَن، ليزدادَ استمساكُه بالعروةِ الوُثقى؛ قالَ تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الآيَتانِ السَّابقتانِ في الإخبارِ عن الاستمساكِ بالعروةِ الوُثْقى، وبيانِ المواصفاتِ التي لا بُدَّ من تَوَفُّرِها فيمَنْ يستمسكُ بها.

وقد أَمَرَ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ بالاستمساكِ بالقُرآن، وأَكَّدَ أَنه على الحَقِّ المُبين، وهذا أَمْرٌ مُوَجَّهٌ لكلِّ مُسْلِمٍ من بعدِه، يَسيرُ على طَريقِه، ويَستعلي على الفِتَن؛ قالَ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى

وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۞ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٠ ـ ٤٤].

يَجبُ على كُلٍّ مِنّا ـ ونحنُ نَعيشُ عَصْرَ الفِتَن، ونُريدُ النَّجاةَ منها ـ أَنْ يَستمسكَ بالقُرآن، بكُلِّ قُوَّتِه وطاقَتِه وجُهْدِه، وأَنْ لا يُفارِقَهُ هذا الاستمساكُ المتينُ لَحْظَةً واحِدَةً، وَأنْ لا يَشُكَّ لحظةً أَنَّهُ على الحَقِّ المُبين، والصِّراطِ المستقيم.

• تمسيك الآخرين بالقرآن:

إِنَّ استمساكَ المؤمنِ البَصيرِ بالقُرآنِ خُطْوَةٌ أَولى، لا بُدَّ أَنْ تَعقبَها خُطوةٌ ثانِيَة، وهي أَنْ يُمسِّكَ غيرَه بالقُرآن، فبعدَما يُحَصِّنُ نفسَه ويُكْسِبُها الحَصَانَةَ والمناعَةَ، ويُحَقِّقُ لها العِصْمَةَ والنَّجاةَ من الفِتَنِ، عليه أَنْ يَلتفِتَ إِلى إِخوانه المسلمين، وأَنْ يَسعى إِلى إِنقاذِهم كما أَنْقَذَ نفسَه، وتحصينِهم كما حَصَّنَ نفسَه، وذلِكَ بِأَنْ يُمَسِّكَهم بالقُرآن، ويَدْعو أَيديهم إِلى الإِمساكِ القويِّ به، ويَدعو قلوبَهم إِلى التَّحصينِ والاعتصامِ الوثيقِ به؛ قالَ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

يُمَسِّكونَ: مضارِع، ماضيه: «مَسَّكَ». ومَعْنى: مَسَّك، يُمَسِّكُ: طَلَبَ من غيرِه أَن يُمْسِك بالقرآن، وحثَّه على ذلك، وأَرشَدَه إِليه.

والمؤمنُ لا يُمَسِّكُ غيرَه بالقُرآنِ إِلَّا إِذا استمسَكَ هو به، وَوَقَفَ على لَذَّةِ ذلك، وأَدركَ سعادَتَه، وأَنِسَ بالحياةِ في ظلالِه.

علينا أَنْ نفهَمَ القرآنَ هذا الفَهْم، وأَنْ نعرفَ له هذا البُعْد، وأَنْ نَستحضرَ له هذه المهمة.

- عَلَيْنا أَنْ نستمسِكَ بالقُرآنِ أَوَّلًا، ونُوَثِّقَ صِلَتَنا به، ونُقَوِّيَ اعتصامَنا به، حتَّى نخرجَ من فِتَن هذا العَصْر.

- ثمَّ علينا أَنْ نُمَسِّكَ غَيْرَنا بالقُرآن، ونُمَتِّنَ صِلَتَهم به.

إِنَّهما مَرْحَلَتان مُتَتابعتانِ، وخُطْوَتانِ مُتلازِمتان:

الاستمساكُ بالقُرآن في أنفسِنا، وتَمسيكُ غَيْرِنا بالقرآن.

وبهذا نُنْقِذُ أَجيالَنا بالقُرآن، ونُعِدُّهم للجهادِ في الميدان.

• القُرآنُ والجهادُ الكبيرُ:

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بجهادِ الكفارِ بالقرآنِ جِهادًا كبيرًا؛ فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذا الأَمْرُ مُوَجَّهٌ من اللهِ إِلى كُلِّ مُسلمٍ صَالحٍ، يَسيرُ على طريقِ رَسولِ اللهِ ﷺ.

ويَنْهى اللهُ في هذه الآيةِ عن طَاعَةِ الكافرين، وكيفَ يُطيعُ مؤمنٌ صَالحٌ أَعْداءَه الكافرين، وهم لا يَأْمُرونَه إِلَّا بالشَّرِّ، ولا يُريدونَ به إِلَّا الأذى؟!.

ويُقَدِّمُ اللهُ للمؤمنِ البديلَ، وهو أَنْ يُجاهِدَ الكافرينَ بالقرآنِ جِهادًا كَبيرًا.

وهذه الآيَةُ تُعَرِّفُنا على طَبيعةِ القرآن، وتُرشِدُنا إِلى هَدَفٍ من أَهدافِه الأَساسية.

إِنَّ القرآنَ كتابُ جِهاد، إِضافَةً إِلى كونِه كِتابَ هِدايَة، وكتابَ تربيةٍ، وكتابَ توجيهٍ وتَعليمٍ، وكِتابَ حُكْمٍ وتَشريعٍ.

القرآنُ كتابُ مواجَهَةٍ مع الكُفَّار، وكِتابُ تَحَدٍّ وتَصَدٍّ لَهُم.

إِنه يقودُ الأُمَّةَ المُسْلِمَةَ في مواجهةِ الأَعداء، والوقوفِ أَمامَ مؤامراتِهم ومكائِدِهِم، ويُعَلِّمُ الأُمَّةَ المُسْلِمَةَ التَّصَدّي لَهُم، وتَحَدّيهم، ويُطالبُها بأَنْ تُجاهِدَهم جِهادًا كَبيرًا دائِمًا مَوْصولًا.

لا بُدَّ أَنْ نعرفَ هذِه الطَّبيعةَ الجهادِيَّةَ للقُرآنِ، ونحنُ نواجِهُ هُجومًا شَرِسًا من قُوى الكُفْر في هذا العَصْر، لا بُدَّ أَنْ نَحرصَ على تَحَدِّيهِم والتَّصَدِّي لهم، وإِبْطالِ مؤامراتِهم، وتَحصينِ الأُمَّة أَمامَهم، لا بُدَّ أَن نُهاجِمَ أفكارَهم، وننقضَ شُبُهاتِهم، ونكشفَ مؤامراتِهم، ونُبَيِّنَ عَداوتَهم، ونُحَذِّرَ منهم.

لا بُدَّ أَنْ نُعِدَّ الأُمَّةَ إِعْدادًا قُرآنيًّا مباركًا، لتكونَ على مستوى المواجَهَةِ مع الباطل، وتَعيشَ حقيقةَ المعركةِ مع الكُفر، وتَخوضَها، وتُشارِكَ فيها بهِمَّةٍ قرآنيةٍ عاليةٍ.

القرآنُ كتابُ مواجَهَةٍ وجهادٍ، يأخذُ بيدِ الأُمَّةِ إِلى ميدانِ الجهادِ الكبير، ويجعَلُها تَعيشُ المعركَةَ الحَيَّة، ويوقِظُ مَعاني المواجهةِ والتَّحَدِّي فيها، ويَفتَحُ عيونَها ببصائرِه الهادية، ويُثَبِّتُ أَقْدامَها في خَطِّ الجهادِ الأَوَّل، ويُقَوِّي حَمْلَها للأَمانَة، وقيامَها بالواجب، وهُجومَها على الباطل.

والجهادُ الذي يَقودُ القرآنُ الأُمَّةَ فيه جِهادٌ كَبيرٌ، كما تَنُصُّ الآيَة: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.. وهو ليس جِهادًا صغيرًا، يليقُ بالصِّغارِ من

الرجال، ولا جِهادًا خفيفًـا بلَهْوٍ ولَعبٍ لا يَقومُ بـه إلّا اللّاعبون اللّاهون، ولا جِهادًا تافِهًـا يُوَجَّهُ إلى التّوافِهِ والشّـكليات، ويَتناسـى الأَساسـياتِ والمُهِمّات..

إنّه جِهادٌ كَبيرٌ في هَدَفِه، كَبيرٌ في موضوعِه، كَبيرٌ في خُطَّتِه ومنهاجِهِ، كَبيرٌ في أَسْـلحتِه ووسـائِله، كَبيرٌ في نهايتِهِ وثمرتِهِ، كَبيرٌ في استمرارِهِ ودوامِه، كَبيرٌ في مَنْ يَقومُ به..

هذا هو القُرآنُ العَظِيـمُ، كتابُ الجهادِ الكبيـرِ، فلْنجاهِد الكُفّارَ به جِهادًا كِبيرًا!.

❊ ❊ ❊

الخاتمة

أَيُّها الأخُ الكريم:

لقد تَعَرَّفْتَ مَعَنا على «هذا القرآن» العظيم، كتابِ اللهِ الكريم، وعَرَفْتَ مَعَنا فَضْلَ اللهِ الغامِرَ علينـــا، عندما مَنَّ علينا بإنزالِ هذا القرآنِ العظيمِ لنـــا، وأَكْرَمَنا بـــأَنْ جعلَه كِتابَ حَياتِنا، ودســـتورَ نظامِنا.

لقد تعرَّفْتَ معنا في هذه الرِّسالة على مَعَاني أَسماءِ القُرآنِ الأَربعة: القرآن، الكتاب، الفرقان، الذكر.

ووقَفْتَ مَعَنا على بعضِ صِفاتِ القرآن.

وعَرَفْتَ مَعَنا كَيْفَ ننظرُ إلى القرآن، نظرةً صائِبَةً، وكيفَ نتعامَلُ معه تَعامُلًا حَيًّا.

وأَدْرَكْتَ مَعَنا سِرَّ حِفْظِ اللهِ للقرآنِ، ومَظاهِرَ هذا الحفظ، وما أَوجبَهُ اللهُ علينا لتحقيقِ حِفْظِه عَمَلِيًّا.

وتذوَّقْتَ مَعَنا بعضَ اللَّطائِفِ مـــن أَوّلِ آياتِ القُرآنِ نُزولًا، وربطتَ مَعنا بينَ أَوَّل ما نزل، وآخِرِ ما نَزَل.

ولاحَظْتَ مَعَنـا كيفَ أَنّ القُرآنَ قَولٌ ثَقيلٌ، وعرفْـتَ مَظاهرَ وأَلْوانًا لهذا الثِّقَل القُرآني، وما يستلزمُه ذلك من صِفاتٍ لحامِلِ القُرآن.

وتَعَرَّفْتَ مَعَنا على مهمّةِ القرآنِ العمليةِ الحركيةِ الحَيَّة، الَّتي يُحَقِّقُها في حياةِ الأُمَّة، وعلى أَهدافِه الأَساسيةِ التي يُحققُها فيها.

وتذوَّقْـتَ معنا نعمةَ الحَياةِ فـي ظِلالِ القرآن، وعَرَفْـتَ كيف أَنها نِعْمَة، نِعْمَةٌ لا يَعْرِفُها إِلَّا مَنْ ذاقَها، نعمةٌ تَرفَعُ العمر، وتُبارِكُه وتُزَكِّيه.

وَتعَرَّفْتَ على بعـضِ فَضائِلِ القرآن، كما وَرَدَتْ في آياتٍ منه، وفي أَحاديثَ صحيحةٍ لرَسـولِ اللهِ ﷺ، وفي كَلامٍ لعلماءِ القرآنِ من السَّلَفِ الصَّالح.

وَتَعَرَّفْتَ معنا على بعضِ صِفاتِ حاملِ القُـرآن، المتحرِّك به، كما عَرَضَتْها الآياتُ والأَحاديثُ الصَّحيحة، وأَقوالٌ لِعلماءَ سَابقين.

وتَعَرَّفْتَ معنا على الصِّلَةِ الصَّحيحةِ بين القرآنِ والعقْلِ الإِنسـاني، ودَوْرِ هذا العقلِ الواسع ومجالِه الفسيح، في تدبُّرِ وفهمِ القرآن، ولكنَّه يبقى تابعًا للنَّصِّ، ولا يكونُ مسـاويًا ونِدًّا له، ولا يكـونُ فوقَه حاكِمًا عليه بمزاجِه وهَواه.

وعَرَفْتَ معنـا أَنَّ اللهَ جعلَ القـرآنَ مهيمِنًا على كُلِّ ما سـواهُ، فهو مُصدِّقٌ للكُتبِ السَّـابقةِ، ناسـخٌ لها، مُهَيْمِنٌ عليها.. وهو مُهَيْمِنٌ على جَميعِ القوانينِ والدَّسـاتيرِ والمواثيقِ والنُّظُمِ والتَّشريعاتِ البشرية، ولا يَجوزُ أَنْ يرقى أَحَدٌ منها إِلى مستواه، ولا أَنْ يُخالِفَ أَوامِرَه وَأَحكامَه.

وعَرَفْتَ مَعَنا كيفَ أَنَّ طريقَ السُّلطانِ قدِ انْفَصَلَتْ عن طريقِ القُرآن،

لأَنَّ السُّلطانَ لا يُرِيدَ أَنْ يَخضعَ خُضوعًا صادِقًا تامًّا للقُرآن، وقد أَخْبَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ بهذا الافتراقِ والانفصال، وأَوْصانا أَنْ لا نُفارقَ القرآن، وأَنْ لا نُؤْثِرَ عليه جانبَ السلطان.

وعرفْتَ معنا أَنَّ القرآنَ هو العاصِمُ عند الفِتَن، والمخرجُ منها، وهو الَّذي يمنَحُ حامِلَه المناعَةَ والحَصانَةَ ضِدَّها، وهو الذي يَدْعوه إلى مواجهةِ أَصحابِ الفِتَنِ، وجهادِهم جِهَادًا كبيرًا، ويوجبُ عليه صدْقَ الاستمساكِ به.

هذه هي أَهَمُّ المَوْضوعاتِ التي عرضْناها في هذه الرِّسالة، لنُعَرِّفَ النَّاسَ على طبيعةِ «هذا القرآن»، ليَقِفوا عليها، ويَتعاملوا معه على أَساسِها.

أَيها الإخوةُ الأحباب:

والآن، وبعدما تعرَّفْنا معًا على «هذا القرآن» الحَبيب، تَعالَوْا معنا لِنزدادَ مَحَبَّةً لهذا القرآن، ونزدادَ تدبُّرًا له، ونزدادَ تلاوةً له، ونزدادَ إدراكًا لطبيعَتِه، ونزدادَ حركَةً معه، ونزدادَ جِهادًا به.

تَعالَوْا معَنا لنجعلَ «هذا القرآن» الحبيبَ في قلوبنا، ونَنشئ عليه كيانَنا، ونصوغَ منه عُقولَنا، ونستمدَّ منه معارفَنا وثقافاتِنا، ونُسْعِدَ به حياتنا، ونتعرَّف منه على رسالتِنا، ونُنيرَ به طريقَنا، ونجاهدَ به أَعداءَنا، ونَبني به مجتمعاتنا.

تَعالَوْا معنا لندورَ مع «هذا القرآن» الحبيبِ حيثُ دار، ونَسيرَ معه حيثُ سار، تعالَوْا معنا لنحبَّ مَنْ أَحَبَّه، ونُعادي مَنْ عاداه، ونُحارِبَ مَن حارَبَه، ونُجاهِدَ مَنْ جاهَده.

تَعالَوْا مَعَنا لننقذَ الأَجيالَ الناشـئةَ بهذا القرآن، ونُحَصِّنَ الأُمَّةَ بهذا القرآن، ونُصلحَ الأَوضاعَ بهذا القرآن.

تعالَوْا مَعَنا لنتحركَ بالقُرآن، ونعمـلَ جاهدين على تطبيقِ آياتِه في حياةِ الأُمة، وعلى تَحقيقِ أَحْكامِه في عالم الواقع، وعلى أنْ تكونَ الأُمَّةُ المُسلمةُ انعكاسًا عمليًّا ماديًّا لحقائقِ القرآن.

ونسـتمدُّ العونَ على هذه الواجبات منَ اللهِ وحدهُ، وهو الموفِّقُ إلى كُلِّ خَيْرٍ.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

المحتوى

- هذا القرآن ٥
- مقدمـــة ٧

أولًا

معاني أسماء القرآن

- حديث القرآن عن القرآن ١٣
- التفريقُ بين أَسماءِ القرآنِ وصفاتِه ١٣
- معنى أسماء القرآن الأربعة ١٤

١ ـ معنى القرآن ١٤

أ ـ الراجحُ في اشتقاقِ «القرآن» ١٤

ب ـ القراءةُ جمع الحروفِ بالنُّطق ١٥

ج ـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ١٦

د ـ تعريف القرآن ١٦

٢ ـ معنى الكتاب ١٩
أ ـ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ ٢٠
ب ـ القراءة والكتابة وسيلتا حفظ القرآن ٢١
ج ـ وصولُ القرآن إلينا بالسَّند المُتَّصل ٢٢
٣ ـ معنى الذِّكْر ٢٣
أ ـ القرآن ذكرٌ وشرفٌ للأُمة ٢٤
ب ـ تفقد الأُمَّةُ ذِكْرَها بتَركها القُرآن ٢٥
٤ ـ معنى الفُرقان ٢٥
أ ـ التَّفريق بالقُرآن ٢٦
ب ـ فُرقَانان آخَران بالقُرآن ٢٧

ثانيًا

من أوصاف القرآن

• أوصاف القرآن كما عرضتها الآيات ٢٩
١ ـ القرآن روح ٢٩
٢ ـ القرآن نور ٣٠
٣ ـ القرآن هدًى ورحمة ٣١
٤ ـ القرآن بيانٌ وبلاغ ٣٢
• أَوصافٌ أُخرى للقرآن ٣٤

١ ـ القرآنُ شِفاءٌ ٣٤
٢ ـ القرآنُ بصائِرُ هادية ٣٤
٣ ـ القرآنُ عَلِيٌّ حَكيمٌ ٣٤
٤ ـ القرآنُ مبارَكٌ ٣٥
٥ ـ القرآنُ مُهَيْمِنٌ ٣٥
٦ ـ القرآنُ قولٌ فَصْلٌ ٣٥
٧ ـ القرآنُ قَيِّمٌ لا عِوَجَ فيه ٣٥
٨ ـ القرآنُ أَحْسَنُ الحديثِ ٣٥
٩ ـ القرآنُ عربيُّ اللغة والأسلوب ٣٦
١٠ ـ القرآنُ تَنْزيلٌ ٣٦
١١ ـ القرآنُ تَذْكِرَة ٣٦
١٢ ـ القرآنُ عَزيزٌ ٣٦

ثالثًا

كيف ننظر إلى القرآن؟

• نظراتٌ خاطئةٌ للقُرآن ٣٧
• كيف نتكلم عن الله؟ ٣٨
• ممارساتٌ خاطئةٌ في التَّعامل مع القرآن ٤٠

رابعًا

حِفْظُ الله للقُرآن

- أَوْكَلَ اللهُ إِلى السَّابقين حِفْظَ كُتُبِهم ٤٧
- تكفَّل الله بحفظ القرآن ٤٨
- هذا الوعد في القرآن والحديث ٤٩
- الله يُلهم المسلمين وسائل حفظهِ ٥٠
- وسائل حفظه بعد رسول الله ﷺ ٥١
- هذه الوسائل لم تتوفر لأيِّ كتابٍ آخرَ ٥٢
- حِفْظُ أَلْفاظِ القُرآن وكَلِمَاته ٥٣
- حفظ مهمته ورسالته ٥٤
- حرص الأعداء على إفشال مهمة القرآن ٥٥

خامسًا

لَطَائف من أوَّل وآخر ما نزلَ من القُرآن

- الرَّاجح في أَوَّل ما نزل ٥٩
- لطائف في أول ما نزل ٦٠

١ ـ الأمر بالقراءة في سُورة العلق ٦٠

٢ ـ ثم الأمرُ بالكِتابة في سُورة القلم ٦٠

٣ ـ ثم الإعداد العِبَادي في سُورة المزَّمِّل ٦١

٤ ـ ثم الأمر بتبليغ الدَّعوة في سُورة المدَّثِّر ٦٢
٥ ـ لفتة تربويَّة دعويَّة ٦٢
• بين أَوَّل ما نزل وآخر ما نَزل ٦٢
• لطائف بين أوَّلِ وآخرِ ما نزل ٦٣

سادسًا

القُرآن قولٌ ثَقِيلٌ

• بينَ ثِقَلِ القُرآنِ وتَيْسيرِه للذِّكْر ٦٧
١ ـ معنى تيسير القرآن للذّكر ٦٨
٢ ـ معنى ثِقَلِ القرآن ٦٩
• مظاهر الثِّقَلِ في هذا القرآن ٧٠

سابعًا

مهمَّة القُرآن في حياة الأمة

• نظراتٌ قاصرةٌ خاطئةٌ إلى القرآن ٧٥
• النَّظرة الكليَّة الشَّاملة إلى القرآن ٧٦
• الأَهدافُ الأَساسيةُ للقرآن ٧٧
١ ـ هداية النَّاس إلى الله ٧٨
٢ ـ تَكوينُ الشَّخصيةِ القُرآنيةِ المُتكاملَة ٧٨
٣ ـ إنشاء المجتمع القُرآني ٧٩

٤ ـ قيادة الأمة في مواجهة الأعداء ٨٠
• مهمَّة القُرآن العملية الحركية ٨١

ثامنًا

نعمة الحياة في ظلال القرآن

• سيد قطب وحياته في ظلال القرآن ٨٥
• نظرة سيد قطب لِسُوَر القُرآن ٨٦
• الاستمتاع بمصاحبة القرآن ٨٨
• تنوع وتتابع موضوعات السُّور ٨٩
• جولة مع سورة الفجر ٩٠
١ ـ مع مقدمة السُّورة ٩١
٢ ـ مع الدَّرس الأول من السُّورة ٩٢
٣ ـ الطُّغيان والفَساد وسوط العذاب ٩٤
٤ ـ مع الدَّرس الثَّاني منَ السُّورة ٩٥
٥ ـ خطأ في النَّظر والسُّلوك ٩٦
٦ ـ مع الدَّرس الثَّالث من السُّورة ٩٧
٧ ـ صحوةٌ متأخرةٌ لذي العقل القاصر ٩٨
٨ ـ خاتمة السُّورة تحقق هدفها ١٠٠

تاسعًا

من فضائل القرآن

- أَحاديثٌ صحيحةٌ في فضائل القرآن........ ١٠٣
- أَقوالٌ للعُلماءِ في فَضائِل القُرآن........ ١١٠

عاشرًا

من صفات حامل القرآن

- آيات في أثر القرآن........ ١١٧
- آيات في صفات حامل القرآن........ ١١٩
- أخلاق أهل القرآن........ ١٢١
- كلام الآجُرّي عن صِفاتِ أهلِ القرآن........ ١٢٤
- الجيلُ القُرآني الفَريد........ ١٢٧
- من أسباب تفرُّد جيل الصَّحابة........ ١٢٨
- معنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾........ ١٢٩
- التِّلاوةُ في أقوال السَّلف الاتِّباع........ ١٣١

حادي عشر

القرآنُ والعقلُ

- مَحدوديَّةُ مجالِ العقل........ ١٣٣
- المحظور على العقل........ ١٣٤

- مجال العقل وميدانه ١٣٦
- العقل تابعٌ للنَّصِّ وليس حَاكمًا عليه ١٣٧
- القرآن يُكَرِّم العقل ١٣٩
- دخول عالم القرآن دون مقررات مسبقة ١٤٠

ثاني عشر

القُرآن مهيمنٌ على ما سواه

- القُرآن مصدِّق للكُتب السَّابقة ١٤٣
- القرآنُ مكذِّبٌ للكُتُب المُحَرَّفة ١٤٤
- هيمنةُ القُرآن على الكُتب السَّماوية ١٤٥
- القرآن فوق كل شيء ١٤٧

ثالث عشر

القرآنُ والسُّلطان

- مزاجية وهوى اليهود ١٤٩
- وجوب الخضوع لحكم الله ١٥١
- رفض حكم الله كفر ونفاق ١٥٢
- ما هو الكفر التَّشريعي؟ ١٥٣
- انفصال السُّلطان عن القُرآن ١٥٤
- وجوب الدَّوران مع القرآن ١٥٥

رابع عشر

القرآنُ عاصمٌ عند الفِتن

- كثرةُ الفتن وتتابعها ١٥٧
- إنكارُ قَلب المُؤمن للفِتَن ١٥٩
- أسباب كثرة الفِتَن في هذا الزَّمان ١٦٠
- القُرآن هُو العاصم عندَ الفتن ١٦٣
- الاستمساك بالقُرآن ١٦٦
- تمسيك الآخرين بالقرآن ١٦٧
- القُرآنُ والجهادُ الكبيرُ ١٦٨

- **الخاتمة** ١٧١
- **المحتوى** ١٧٥
- **صدر من سلسلة «من كنوز القرآن»** ١٨٥
- **كتبٌ صدرت للمؤلف مرتبة وفق صدورها** ١٨٧

***



صدر من سلسلة
«من كنوز القرآن»



١ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.

٢ ـ في ظلال الإيمان.

٣ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.

٤ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.

٥ ـ مع قصص السَّابقين في القرآن.

٦ ـ لطائف قرآنية.

٧ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٨ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.

٩ ـ عتاب الرسول ﷺ في القرآن: تحليل وتوجيه.

١٠ ـ وعود القرآن بالتمكين للإسلام.

١١ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تعريف وبيان.

١٢ ـ القرآن ونقض مطاعن الرُّهبان.

١٣ ـ وقفات مع هذه الآيات.

١٤ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.

١٥ ـ هذا القرآن.

* * *

كتبٌ صدرت للمؤلف

مرتبة وفق صدورها

١ ـ سيد قطب الشَّهيد الحي.

٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.

٣ ـ أمريكا من الدَّاخل بمنظار سيد قطب.

٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن.

٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن.

٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان.

٧ ـ مفاتيح للتَّعامل مع القرآن.

٨ ـ من ظلال الإيمان.

٩ ـ الشَّخصية اليهودية من خلال القرآن.

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.

١١ ـ مع قصص السَّابقين في القرآن.

١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن.

١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر.

١٤ ـ إسرائيليات معاصرة.

١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.

١٦ ـ لطائف قرآنية.

١٧ ـ هذا القرآن.

١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.

١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.

٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.

٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.

٢٢ ـ التَّفسير الموضوعي بين النَّظرية والتَّطبيق.

٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التَّواقة.

٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: (١ ـ ٧).

٢٥ ـ الرسول المبلغ ﷺ.

٢٦ ـ القصص القرآني: (١ ـ ٤).

٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.

٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.

٢٩ ـ القبسات السنيَّة من شرح العقيدة الطحاوية

٣٠ ـ سيد قطب، الأديب الناقد والدَّاعية المجاهد.

٣١ ـ صور من جهاد الصَّحابة.

٣٢ ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني.

٣٣ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.

٣٤ ـ سعد بن أبي وقاص: المجاهد الفاتح.

٣٥ ـ الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب.

٣٦ ـ سيرة آدم عليه السلام: دراسة تحليلية.

٣٧ ـ بين الإسلام الرباني والإسلام الأمريكاني.

٣٨ ـ عتاب الرسول ﷺ في القرآن: تحليل وتوجيه.

٣٩ ـ وعود القرآن الكريم بالتمكين للإسلام.

٤٠ ـ حديث القرآن عن التوراة.

٤١ ـ جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم.

٤٢ ـ سفر التكوين في ميزان القرآن.

٤٣ ـ الانتصار للقرآن.

٤٤ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تحليل وتوجيه.

٤٥ ـ القرآن ونقض مطاعن الرُّهبان.

٤٦ ـ الكُليني وتأويلاته الباطنية للآيات القرآنية.

٤٧ ـ وقفات مع هذه الآيات.

٤٨ ـ تفسير ابن كثير تهذيب وترتيب: (١ ـ ٦).

٤٩ ـ الوجيز في الثقافة الإسلامية. بالاشتراك.

٥٠ ـ بصائر.

* * *



